تدبر سورة الفاتحة

ناصر بن سليمان العمر

رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

تدبر

مركز تدبر للدراسات والاستشارات

تدبر سورة الفاتحة

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ- ٢٠١٦
الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥
هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ ٠١١ ـ تحويلة ٣٣٣
ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦ ٠١١
ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤
البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com
@tadabbor www.tadabbor.com

(ح) ناصر سليمان العمر، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمر، ناصر بن سليمان
تدبر سورة الفاتحة / ناصر بن سليمان العمر - ط١ - الرياض، ١٤٣٧هـ
٧٢ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم
ردمك: ٧-٠٥٣٨-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢ - تفسير - سورة الفاتحة أ. العنوان
ديوي ٢٢٩ ٣٤٧٨ / ١٤٣٧

رقم الإيداع: ٣٤٧٨ / ١٤٣٧
ردمك: ٧-٠٥٣٨-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

سُورَةُ الفَاتِحَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢
ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ
عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

مُقَدِّمَة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، الرَّحمنِ الرَّحِيم، مالِكِ يومِ الدِّين، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

أمَّا بعدُ: فإنَّ سورَةَ الفاتحة هي أعظمُ سورةٍ خاطبَ اللهُ ﷿ بها الجنَّ والإنسَ، من لَدُنْ آدمَ ﵇، وإلى أن يرثَ اللهُ الأرض ومَن عليها، فقد ثبت أنَّها أعظمُ سورة في القرآن، كما في حديث أبي سعيد بن المعلَّى ﵁ قال: قال لي -يعني رسولَ الله ﷺ-: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ**»، ثمَّ أخذ بيدي، فلمَّا أراد أن يخرج، قلتُ له: ألم تقُلْ: «**لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ**»؟ قال: «﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١﴾ **هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»[1].

وإذا كانت الفاتحةُ أعظمَ سورةٍ في القرآن، فهي أعظمُ سورة أنزلها اللهُ ﷿ على عباده، إذِ القرآنُ خيرُ الكتبِ وأحسنها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر]، وقال في سورة يوسف: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾. ونتيجةُ ذلك: أنَّ سورة الفاتحة هي أحسنُ السُّوَرِ المنْزَلةِ، لا تفضُلُها سورةٌ في جملتها، وغايةُ الأمر أن تفضلَ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤٧٤).

آياتِها منفردةً آيةٌ؛ كآية الكُرسي، أو تفضُلَها سورةٌ في أحد الموضوعات، أمَّا عند النَّظر إلى جملة السُّورة فهيَ خيرُ كلامٍ طرقَ مسامعَ الثَّقلين.

وإذا كانت الفاتحةُ بهذه المثابة، فلا غَرْوَ أن تُفرَضَ قراءتُها في اليوم والليلة ما لا يَقِلُّ عن سبع عشرةَ مرَّةً -غالبًا- ولا عجبَ من عنايةِ العلماء بها قديمًا وحديثًا، لكنَّ العجبَ مِمَّن يقرؤها ولا يتدبَّرُها، لا يحضر قلبه، ولا ينظر في معانيها، فضلًا عن أن ينظر في حالِه ومكانه منها.

وقد جاءت هذه الرِّسالةُ في سياقِ الدَّعوة إلى تدبُّرها، غيرَ مفتقرةٍ إلى بيانِ أسبابِ وضعها عندَ العالِمين بموضع هذه السُّورة من القرآن، ومكانِها من كلام الملك العلام، بل المفتقرُ إلى البيانِ سببُ تأخُّرها، أو الاعتذارُ عنه.

وقد كانت الدُّروس في سورة الفاتحة قديمةً، ثم يسَّر الله سبحانه وتعالى بفضلِه استلالَ الفوائد واختصارَها في هذا الكتاب، الَّذي تضافرت عليه جهودُ عَددٍ من الباحثينَ، في المكتب العلميِّ -شكر الله لهم- ما بين مُعِدٍّ للأصلِ المقول، ومُفرِّغٍ لما قيل، وجامعٍ للفروق والإضافات من هنا وهناك، ومختصرٍ لذلك في كلمات، ومُرتِّبٍ لها، ومراجعٍ لجملة العمل.

وكان المسلكُ في ذلك كلِّه الاقتضابَ غالبًا، مع الحرص على اللغة السَّهلة الرَّصينة، نقف مع الآياتِ آيةً آيةً، ونُرتِّب الحديث على مسائلها في جمل مستقلة -أو كما يُقال: في نقاط- مناسبةٍ لترتيب دلالات الآية، ناثرين مع الفوائدِ والاستنباطاتِ دُرَرًا من كلام الأعلام الأثبات، وقد حرصنا على عزو ما كان منقولًا بلفظه، دون ما أُنشِئت له العباراتُ أو تُصُرِّف فيه، كما حرصنا على ضبط ألفاظ السُّنَّة، وعزوها إلى مصادرها دونَ تطويلٍ يُخِلُّ بغرض الكتاب.

وبين يدي ذلك قدَّمنا بمقدّمة تُعطي صورة إجمالية عن السُّورة، ومنهاج الوسطيَّة فيها، ثم عقبنا بخاتمة تُجمل المقصود، وتنبِّه على المطلوب.

هذا، واللهَ أسألُ أن يبارك في الجهود، وأن يتجاوزَ عن التَّقصير الموجود، وأن يجعلَنا والقارئين، من الهُداةِ المهديِّين المبشَّرين: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر].

ولا يفوتني أن أشكر كلَّ من ساهم في إخراج هذا الكتاب، مذ كان فكرةً، إلى أن غدا بين أيديكم كما ترَون، كما أتقدَّم بالشُّكر لكلِّ من يهدي إليّ أيَّة ملحوظةٍ؛ لتُتَدَارك في طبعاتٍ أخرى بإذن الله.

والحمدُ لله أولًا وأخيرًا، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وعلى آلهِ وصحبهِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وكتب:

ناصر بن سليمان العمر

ليلة الأحد ٢٦ محرم ١٤٣٧هـ

بين يَدَي السُّورة

أولًا: أسماؤها ووجه التَّسمية:

لهذه السُّورة الكريمة أكثرُ من عشرين اسمًا، وذلك يدلُّ على شرفها؛ فإنَّ كثرة الأسماءِ دالَّة على شرف المسمَّى(١).

تُسمَّى السُّورة بفاتحة الكتاب، وهو أشهر أسمائها، وبه سُمِّيت في كثير من مصاحف الشَّرق والغرب، وتُسمَّى -أيضًا- بأمِّ القرآن، وأمِّ الكتاب، ووجه التَّسمية بها: أنَّها مُفتتَح القرآن ومبدؤه، فكأنها أصله ومنشؤه، وبها تُستفتح القراءةُ في الصَّلاة(٢)، ولعلَّ مِن أوجُه تسميتها بأمِّ القرآن اشتمالُها على مقاصده، كما قرَّر ذلك ابنُ القيِّم في أول كتابه «مدارج السَّالكين»، وغيره(٣)، وقد ثبتت هذه الأسماءُ في أحاديثَ كثيرة، منها:

ما رواه عبادة بن الصَّامت ﵁؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»(٤).

وعن أبي سعيد الخدريِّ ﵁؛ أنَّ ناسًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ أتَوا على حيٍّ من أحياء العرب فلم يَقروهم، فبينما هم كذلك إذ لُدغ سيِّد أولئك، فقالوا: هل

---

١) الإتقان في علوم القرآن: ١/١٨٧.

٢) يُنظر: تفسير أبي السعود: ١/٧، تفسير البيضاوي: ١/٢٥.

٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١/١٣٥.

٤) أخرجه البخاري في صحيحه: ١/١٥١ رقم ٧٥٦، ومسلم في صحيحه: ١/٢٩٥ رقم ٣٩٤.

معكم من دواءٍ أو راقٍ؟ فقالوا: إنَّكم لم تَقرونا، ولا نفعلُ حتى تجعلوا لنا جُعلًا، فجعلوا لهم قطيعًا من الشَّاء، فجعل يقرأُ بأمِّ القرآنِ ويجمعُ بُزاقه ويتفل، فبرأ، فأتوا بالشَّاء، فقالوا: لا نأخذُه حتَّى نسألَ النَّبيَّ ﷺ، فسألوه، فضحك، وقال: «**وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟! خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ**»(١).

وعن أبي هريرة ﵁؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي**»(٢).

وتُسمَّى -أيضًا- بالسَّبع المثاني والقرآنِ العظيم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧﴾[الحجر]، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ المقصود بالسَّبع المثاني هي سورة الفاتحة، واختاره ابن جرير في تفسيره(٣)، واحتجَّ بالأحاديث الواردة في ذلك، ومنها: حديث أبي سعيد بن المعلّى ﵁، وفيه: قال رسول الله ﷺ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»(٤). وسُمِّيت بالسَّبع المثاني؛ لأنَّ عددها سبعُ آيات، وهي تُثنَّى وتُكرَّر كلَّ ركعةٍ في الصَّلاة(٥)، وهي القرآنُ العظيم؛ لاشتمالها على المعاني الَّتي في القرآن(٦).

---

١) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٣١/٧ رقم ٥٧٣٦، ومسلم في صحيحه: ١٧٢٧/٤ رقم ٢٢٠١.

٢) أخرجه أبو داود في سننه: ٧١/٢ رقم ١٤٥٧، والترمذي في سننه: ٢٩٧/٥ رقم ٣١٢٤، وأحمد في مسنده: ٤٩١/١٥ رقم ٩٧٩٠، وصححه الألباني.

٣) تفسير الطبري: ٣٦٥/٥.

٤) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٧/٦ رقم ٤٤٧٤.

٥) تفسير الطبري: ٧٥/١.

٦) الإتقان: ١٦٩/١.

وقد ثبت -أيضًا- تسميتُها بسورة الصَّلاة، ففي حديث أبي هريرة ﵁؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١﴾ **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي...**» الحديث(١).

ومما ثبت من أسماء سورة الفاتحة: سورةُ الحمد، ووجهُ تسميتها بسورة الحمد؛ لافتتاحِها به، وغلبتِه عليها.

ولها أسماءٌ وردت في آثارٍ لم تَصِحَّ سندًا، وإن صحَّ معناها، كالشِّفاء، والشَّافية، وأسماءٌ أخرى اجتهاديَّة، لم تستند في التَّسمية إلى الأثر، وليس فيها ما يرفعُها إلى النَّبيِّ ﷺ، كتسميتها بالكافية، والواقية، والوافية، إلا أنَّها معانٍ صحيحةٌ مستنبطةٌ من الأحاديث(٢).

عددُ آياتها:

آياتُ سورة الفاتحة سبعُ آياتٍ بالاتفاق بين جميع القراء والعلماء، إلا من شذَّ ولم يُعْتَدَّ بشذوذه، قال القرطبيُّ: «أجمعتِ الأمَّة على أنَّ فاتحة الكتابِ سبعُ آياتٍ، إلا ما رُوِيَ عن حُسين الجعفيِّ: أنَّها سِتٌّ، وهذا شاذٌّ. وإلا ما رُوي عن عمرو بن عبيد، أنه جعل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ آية، وهي على عدِّه ثماني آيات، وهذا شاذٌّ. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر]، وقوله: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ**» الحديث(٣)، يردُّ هَذينِ القولين»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٢٩٦/١ رقم ٣٩٥.

(٢) يُنظر الإتقان: ١٨٨/١ وما بعدها.

(٣) سبق تخريجه في الصفحة السابقة: ص ١٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١١٤/١.

وإنَّما اختلفوا في الآيةِ الَّتي تكونُ بها السُّورة سبعًا؛ قال الطَّبريُّ: «وأمَّا تأويل اسمها أنَّها السَّبع فإنَّها سبع آيات، لا خلافَ بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك، وإنَّما اختلفوا في الآي الَّتي صارت بها سبعَ آيات، فقال عُظم أهل الكوفة: صارت سبع آيات بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ ورُوي ذلك عن جماعةٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ والتَّابعين. وقال آخرون: هي سَبعُ آياتٍ، وليس منهنَّ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولكن السَّابعة ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾(١)؛ وذلك قولُ عُظم قرَّاء أهل المدينة ومتفقِّهيهم»(٢).

نُزولها:

اختلف أهلُ العلم في نزولها، والَّذي عليه جمهورُ أهل العلم وأكثرُ المفسرين، أنَّ سورة الفاتحة نزلت بمكَّة، قال الحسن بن الفضل: «وصحَّ الخبر عن النَّبيِّ ﷺ في حديث أُبيٍّ بن كعبٍ أنَّها من: «أوَّل ما نزلَ من القرآن»، وأنَّها: «السَّبع المثاني»، وسورة الحِجْر مكيّة بلا اختلاف، ومعلوم أنَّ الله تعالى لم يمتنّ عليه بإيتائه السَّبع المثاني وهو بمكة، ثم أنزلها بالمدينة(٣)، ولا يسعنا القولُ بأنَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم كان بمكَّة يصلِّي عشرَ سنواتٍ بلا فاتحةِ الكتاب، هذا ممّا لا تقبله العقول»(٤).

---

(١) يريد رحمه الله أن عدَّ قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦﴾ آية مستقلة، هو ما أكمل عدد آي الفاتحة سبع آيات عند الفريق الثاني، لا أنها السابعة في الترتيب عندهم، إذ السابعة في الترتيب هي ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾.

(٢) جامع البيان: ١/١٠٦.

(٣) المراد: أن امتنان الله عز وجل عليه وهو في مكة بإنزال السبع المثاني -وهي الفاتحة- وذلك بقوله تعالى في سورة الحجر المكية: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾، دليل على أنها نزلت بمكة لا المدينة.

(٤) نقله الثعلبي في تفسيره: ١/٩٠.

فضلُها:

ورد في فضلِ سورةِ الفاتحة جملةٌ من الأحاديث، منها: ما رواه أبو سعيد بن المُعلّى ﵁؛ قال: كنتُ أصلِّي، فدعاني النَّبيُّ ﷺ فلم أُجِبْه، فقلت: يا رسولَ الله، إنِّي كنتُ أصلِّي، قال: «**أَلَمْ يَقُلِ اللّٰهُ:** ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [**الأنفال:٢٤**]؟» ثم قال: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟**» فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرُج قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّك قلت: لأعلِّمنَّك أعظمَ سورةٍ من القرآنِ، قال: «**الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»(١).

وعن عبدالله بن عبَّاس ﵄ قال: بينما جبريل قاعدٌ عندَ النَّبيِّ ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفعَ رأسه، فقال: «**هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ**»، فَسَلَّمَ وَقَالَ: «**أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**»(٢).

وعن أبي هُريرة ﵁، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال عنها: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا**»(٣).

وعن عُبادةَ بن الصَّامت ﵁؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»(٤).

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٥٥٤/١ رقم ٨٠٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: ١٥٥/٥ رقم ٢٨٧٥، وصححه الألباني.

(٤) سبق تخريجه ص ٩.

وعن أبي هريرة ﵁؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، إِذَا قَالَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

مقصدُها وأهدافُها:

مقصودُ سورةِ الفاتحةِ، وقُطْبُ رَحَاها الَّذي تَدُور عليه هو: تحقيقُ التَّوجُّه إلى اللهِ تعالى بكمال العبوديَّة له وحده؛ بإثبات استحقاقِه لها؛ لتفرُّده بالرُّبوبيَّة؛ والإقرار له بالألوهيَّة، وسؤاله الهداية إلى طريق المُنعَم عليهم، القائمينَ له بالعبوديَّة التَّامَّة، ومجانبة طريق المغضوب عليهم والضَّالِّين.

وقد اشتملت على «أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة أنواع: الثَّناء على الله ثناءً جامعًا لوصفه بجميع المحامد، وتنزيهه عن جميع النَّقائص، ولإثبات تفرُّده بالإلهيَّة، وإثبات البعث والجزاء، وذلك من قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ والأوامر والنَّواهي من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ والوعد والوعيد من قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخرها، فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كلِّه، وغيرُها تكملات

---

[1] سبق تخريجه ص ١١.

لها؛ لأنَّ القصدَ من القرآن إبلاغُ مقاصده الأصليَّة، وهي صلاح الدَّارين؛ وذلك يحصُل بالأوامر والنَّواهي، ولما توقَّفت الأوامر والنَّواهي على معرفة الآمِر، وأنَّه اللهُ الواجبُ وجودُه، خالقُ الخلقِ، لزم تحقيقُ معنى الصِّفاتِ، ولما توقَّف تمام الامتثال على الرَّجاء في الثَّواب والخوف من العقاب؛ لزم تحقُّق الوعد والوعيد.

والفاتحة مشتملةٌ على هاته الأنواع؛ فإنَّ قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ حمدٌ وثناء، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ من نوع الأوامر والنَّواهي، وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد، مع أنَّ ذكر المغضوب عليهم والضَّالِّين يُشير أيضًا إلى نوع قصص القرآن»[1].

منهج الوسطيَّة في سورة الفاتحة:

إنّ المتأمِّل في الواقع الذي تعيشُه الأمّةُ اليومَ، يرى بَوْنًا شاسعًا في مشاربها وأهدافها، واختلافًا في منطلقاتها وغاياتها؛ يرى الإفراط والتَّفريط، والغلوّ والجفاء، والإسراف والتَّقتير.

هذا على مستوى الأمّة عمومًا، فإذا انتقلنا إلى الدّعاة والمصلحين الذين أقضَّ مضاجعَهم هذا الواقعُ المؤلم لأمَّتهم، فطفقوا يبحثون عن سبل العلاج وطوق النَّجاة لإخراج البشريَّة من الظُّلمات إلى النُّور، ومن الضّلالة إلى الهدى، وجدنا انعكاس واقع الأمَّة على حالهم؛ فمنهم المشَرِّق، ومنهم المغرِّب، ترى المفرِط والمفرِّط، ترى بين هؤلاء الدُّعاة والمصلحين مَن غلا وأفرط في الغلوّ، فنشأت جماعاتُ تكفير

---

[1] التحرير والتنوير: ١/١٣٣.

وهجرة، وعادت سوقُ الخوارج رائجة، وترى من فرَّط وجفا، وأضاع معالم الدّين وأصول العقيدة، حرصًا على جمع النَّاس دون تربيتهم، ففشا الإرجاء، وانطمست معالم التَّوحيد وحقيقة العبادة.

وبينَ هؤلاء وأولئك وقفت فئةٌ تقتفي الأثرَ، وتصحِّح الطّريقَ، وتدلُّ الناس إلى الصِّراط المستقيم، على منهج أهل السُّنَّة والجماعة، وسلف الأمّة؛ ينفُون عن هذا الدّين غلوّ الغالين، وانتحال المبطلين، وتفريط الكُسالى والمرجئين، ودعاوى المنافقين والمرجِفين.

وقد وقفتُ طويلًا عند مسألة الغلوّ والجفاء، والإفراط والتَّفريط، وأدركت أنَّ الأمّة بأمسِّ الحاجة إلى منهج الوسطيَّة منقذًا لها من هذا الانحراف، الَّذي جرَّ عليها المصائب والمشكلات، وقد رسم القرآنُ الكريم لنا هذا المنهج في شتَّى جوانبه، أصولًا وفروعًا، عقيدةً وعبادةً، خُلقًا وسلوكًا، تصوُّرًا وعملًا، وبأساليبَ عدَّة، تصريحًا وإيماءً، مفصَّلًا ومجملًا، خبرًا وإنشاءً، أمرًا ونهيًا.

وقد بدأ القرآنُ الكريم في رسم هذا المنهجِ، من بدايته في أمّ الكتاب، حيث إنَّها من أوَّلها إلى آخرها تقرّر هذه الحقيقة وتؤكِّدها.

وأبرزُ آيةٍ فيها ناطقةٌ بذلك، هي قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥ ﴾؛ فهذه الآية وما بعدها صريحةٌ في تحديد المنهج الوسط، ذلك أنّه بيّن أنَّ هذا الصراط هو صراط الَّذين أنعم الله عليهم، وأنه هو منهج الوسط، حيث قال واصفًا الصِّراط المستقيم: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾؛ فمنهجُ المغضوب عليهم يمثل التَّفريطَ، بينما يمثل منهج الضَّالِّين الإفراط، فهما منهجان دائران بين الغلوّ والجفاء.

وبهذا يتّضح لنا أنَّ هناك ثلاثةَ سبل: سبيلُ الَّذين أنعم اللهُ عليهم، وسبيلُ المغضوبِ عليهم، وسبيلُ الضَّالِّين، ونحن مأمورون بالالتزام بسبيل الَّذين أنعم اللهُ عليهم؛ لأنَّه هو الصّراطُ المستقيم، وهو المنهج الوسط بين طريقين منحرفين، وهما طريقا اليهود والنَّصارى، وكلُّ طريقٍ منحرف عن منهج الصّراط المستقيم؛ فله حظّ من أحد هذين السَّبيلين.

ولأنَّ الاستقامَةَ تعني الوسطيَّة كما توضحها آية الفاتحة، جاءت الآياتُ المتعدّدة في القرآن الكريم تدعو إلى الاستقامة بأساليبَ متعدّدةٍ وألفاظٍ مُتقاربة، وهي تدور بين الخبر والإنشاء؛ فسورةُ الفاتحة وَضعَتِ القاعدةَ والمنطلق، ورسمَتِ المنهجَ وحدَّدت معالمه، ثم جاءتِ الآياتُ بعد ذلك مقرّرةً لذلك، وداعيةً إليه.

* * *

وَقَفاتٌ إجماليَّة مع السُّورة

سورةُ الفاتحةِ كالمقدِّمة للكتابِ الكريم؛ ولذلك فقد جمعت أصولَ المعاني التي دار عليها الكتابُ العزيز في مجمل سورهِ؛ فالقرآنُ كلُّه كالشَّرحِ لسُورة السَّبع المثاني؛ قال ابن عاشور: «هذه السُّورةُ وُضِعت في أوَّل السُّوَر؛ لأنها تُنزّل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمَّنته من أصول مقاصد القرآن... وذلك شأنُ الدِّيباجة من براعة الاستهلال»[1].

في افتتاحِ الكتابِ العزيز بها؛ برهانُ فضلها، ورفعة قدرها.

وفيهِ إشعارٌ بيسر هذا الدِّين وسهولته وقربه من أفهام عامَّة الخلق؛ لأنَّ هذا هو الطَّابَع العامُّ لهذه السُّورة، على الرغم من وجازتها وقلة ألفاظها، فدلَّ ذلك على أنَّ ما بعدَها من السُّور الطَّويلة، المشتملة على التَّفصيل وضرب الأمثلة ونحو ذلك، سيكون أكثر يسرًا، وأقربَ إلى فهم عامَّة النَّاس.

وضعُها في بداية المصحف مُجمعٌ عليه، فلا يصحُّ تحويلها عن موضعها ذلك.

في هذا التَّرتيب أنه ينبغي البدءُ بالأهمِّ قبل المهمِّ، وبالأصولِ قبلَ الفروع، وبجوامع العقائد والشَّرائع الظَّاهرة قبلَ تفصيلاتها الخفيَّة.

وقد جاء التَّشريع في الصَّلاة موافقًا لهذا التَّرتيب، ففَرَض افتتاحَ الصَّلاة بعد تكبيرة الإحرام بقراءتها قبل قراءة ما سواها من القرآن.

---

[1] تفسير التحرير والتنوير: ١/١٣٥.

لهذه السُّورة من الفوائد والمنافع ما لا يوجد في غيرها من الكلام، قال ابن القيم: «ومن المعلوم أنَّ بعض الكلام له خواصُّ ومنافع مجرَّبة، فما الظَّنُّ بكلام ربِّ العالمين؟... فما الظَّنُّ بفاتحة الكتاب التي لم ينزل في القرآن، ولا في التَّوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلُها؟!»(١).

سُورةُ الفاتحة شافيةٌ لأمراض القلوب والأبدان، وحاجةُ القلوب إليها آكد؛ لأنَّ أمراضَ القلوب أشدُّ من أمراض الأبدان؛ فإذا صلَح القلبُ صلَح البدن كلُّه.

سُورة الفاتحة أوَّلُها رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، ومَن رَحِمَهُ اللهُ تعالى فقد هداه، ومن هداه فقد أنعم عليه، والنِّعمة الحقيقيَّة تكون بالرَّحمة والهداية.

تختصُّ سورة الفاتحة بأنَّها سورة المناجاة، حيث يقرؤها المسلم في كلِّ ركعةٍ من صلاتِه، وهي أعظمُ سورةٍ في القرآن، ولم يُنزِل اللهُ تعالى مثلها في كتبه؛ لذلك يجب العنايةُ بها، فإنَّ تلاوة ما كان مفضَّلًا وتدبّرَه يترتَّب عليه من الأجر والثَّواب ما لا يترتَّبُ على غيره.

تدبُّر سورة الفاتحة واستحضارُ معانيها على سبيل الإجمال واجبٌ على كلِّ مسلم، فقد سمّى اللهُ تعالى الفاتحةَ بالصَّلاة فيما يرويه نبيُّه ﷺ عنه، والصَّلاة التي تنهَى عن الفحشاء والمنكر هي تلك الصَّلاة التي يؤدِّيها المسلم بحضور قلب.

تدبُّر سورة الفاتحة يُوصل لمرتبة الإحسان، حيث إنَّ أوَّل طريقٍ لإحسان العبادة هو أن يجمع المرءُ قلبه حال قراءة الفاتحة، فيستشعر وقوفه بين يدي الله

---

١) زاد المعاد في هدي خير العباد: ٤/ ١٦٣.

تعالى ومناجاته له؛ ولذلك كان الخطابُ في سورة الفاتحة خطابَ الغيبة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣﴾، فلما أثنى على اللهِ تعالى اقتربَ وحضرَ بين يديه سبحانه، فالتفت من الغيبة إلى الحضور: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾، فلما أقرَّ بتمام العبوديَّة لله تعالى وكمال الاستعانة به، فكأنه أُذِنَ له فسأل اللهَ تعالى من فضله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾.

اشتملت سورةُ الفاتحة على أعظمِ المقاصدِ من خلقِ الخلق، وهو: تحقيقُ كمال العبوديَّة للهِ تعالى، فأوَّلُها: بيانٌ لأسباب استحقاق العبوديَّة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣﴾، وأوسطها: إقرارٌ واعترافٌ بالعبوديَّة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾، وآخرها: وصفٌ لطريق العبوديَّة وطلب تحقيقه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾.

هذه السُّورة مبنيَّة على ذكر حقِّ الخالق والمخلوق، فنصفُها الأول مبنيٌّ على إثبات استحقاق العبادةِ لله وحده، ونصفُها الثَّاني مبنيٌّ على ما يُحقِّق للعبد حاجته وسعادته، وبينهما بيانُ الطَّريق الموصلة إليها، وأنها ليست إلا عبادته، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعونته.

اشتملت السُّورة على أصول العقيدة والأحكام والأخبار، فأمَّا أصول العقيدة؛ ففيها تقريرُ توحيد الله تعالى بأنواعه؛ حيث أثبتت لله الربوبيَّة والألوهيَّة والأسماء الحسنى والصِّفاتِ العليا، وفيها إثبات النُّبوَّة، وانقسام الخلق إلى ثلاثة أصناف

بحسب اتِّباعهم للرسل، وفيها إثباتُ اليوم الآخر بذكر يوم الدِّين، وهو يومُ الجزاء على الأعمال، وفيها تقريرُ الإيمان بالقدر بإثبات هداية القلوب لله وحده، وطلب الإنعام منه. وأمَّا أصول الأحكام؛ ففي الإقرار لله بالعبوديَّة؛ إذ العبوديَّة التَّامَّة لا تكونُ إلا بطاعة أوامره واجتناب نواهيه. وأمَّا أصولُ الأخبار، فلأنَّ كلَّ أخبارِ القرآن جاءت في بيان أقسام الخلق الثَّلاثة التي لا يخرجون عنها: قسم عَرفوا الحق وحادوا عنه، وهم: المغضوبُ عليهم، وقسم جهلوه، وهم: الضَّالُّون، وقسم عرفوا الحقَّ وعملوا به، وهم: المُنعَمُ عليهم.

تُظهرُ السُّورة سبقَ رحمةِ الله تعالى لغضبه، فقد ذكر سبحانه رحمتَه في اسمي «الرَّحمنِ الرَّحيم» في البسملة، ثم كررهما في بداية السُّورة قبل أن يذكر المغضوب عليهم، وجاءت السُّنَّة بذلك، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١).

تحوي سورةُ الفاتحة أركانَ التَّعبُّد القلبيَّة الَّتي لا تستقيمُ العبادةُ إلا بها، وهي: المحبَّةُ والخوفُ والرَّجاء، فالمحبَّة في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، والرَّجاء في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والخوف في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

اشتملت السُّورةُ على شرطي قَبول العبادة؛ ففي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ شرطُ الإخلاص، حيث قدّم المعمول، وتقديمُه يدلُّ على الحصر، فمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾: نخصُّك وحدَك بالعبادة، ولا نَصرِف شيئًا من العبادة لأحدٍ غيرك، وفي قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥﴾، وقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾

---

١) أخرجه البخاري في صحيحه: ٩/١٥٣، رقم ٧٤٥٣.

شرطُ المتابعة؛ لأنَّ الله تعالى لا يقبلُ العمل إلا إذا كان على ضوء الصِّراط المستقيم الَّذي دعا إليه النَّبيُّ ﷺ، وهو صراطُ الَّذين أنعم اللهُ عليهم وأوَّلُهُمُ النَّبيُّون، وفي مقدِّمتهم نبيُّنا عليه وعليهم الصَّلاة والتَّسليم.

ذكر الله تعالى في هذه السُّورة ستةً من أسمائه الحسنى، وهي: الله، الرَّبُّ، الرَّحمنُ، الرَّحيمُ، ومَلِكُ يوم الدِّين، ومالكُ يوم الدِّين كما في القراءة الأخرى، وكلتاهما سَبعيَّة، والثَّلاثةُ الأولى هي أصولُ الأسماء الحسنى، فاسم: «الله» متضمِّنٌ لصفات الألوهيَّة، واسم: «الرَّبِّ» متضمِّنٌ لصفات الرُّبوبيَّة، واسم: «الرَّحمن» متضمِّنٌ لصفات الجود والبرِّ والإحسان، فالرُّبوبيَّة من الله لعباده، والتَّأليه منهم إليه، والرَّحمة سببٌ واصلٌ بين الرَّبِّ وعباده.

ما ذكرهُ الله تعالى في هذه السُّورة- الَّتي هي أعظم ما أُنزِلَ- هو أفضلُ وأولى ما يُذكر في موضعه، فقد ذَكَر تعالى الحمدَ وهو أكملُ أنواع العبادة، وذكر اسمه «الله» وهو أعظمُ الأسماء وأشملها لمعاني الأسماء الأخرى، وَذَكَر ربوبيَّته للعالمين وهي أعظمُ أدلَّةِ قدرته وعلمه وكماله واستحقاقه للإفراد بالعبوديَّة، وَذَكَر رحمته وهي أقوى متعلَّقٍ للعبد، وأكثر شيء يحتاجه بل يُضطرُّ إليه، وَذَكَر مُلكه ليوم الدِّين وهو أعظم الأيام، ومُلكُ ذلك اليوم من أكبر مظاهر ربوبيَّته الشَّاملة الكاملة، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾ وهما أعظمُ حقوق الله، وأكبرُ حظوظ العبد، وقال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥﴾ وهو أعظم الأدعية، وقال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦﴾ وهم أفضل النَّاس، وقال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ وهم أكثرُ الفرق ابتعادًا عن الدِّين الحقِّ، وانحرافًا عنه، ومعاداةً له.

بيَّنتِ السُّورة أهمِّيَّة الاهتداء للصِّراط المستقيم، حيث يسأل المؤمن ربه هدايته إليه؛ لأنها بيده وحده، وهي فضله ونعمته. وقد عيّن الصراط، ووصف أهله، وبيّنَ مَنْ جَانَبَهُ، وجزاءَ كلٍّ منهم.

في سورة الفاتحة أصولُ الرُّدود على جميع طوائف الضَّلال، ففيها الرَّدُّ على الملاحدة الَّذين لا يؤمنون بربٍّ؛ فإنَّ قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١﴾ ردٌّ على الملاحدة الذين يرَون أنَّ العالَمَ ليس له ربٌّ، وإنَّما هو الذي يُكوِّنُ نفسَه! والطَّبيعة هي الَّتي تُكوِّن هذه الأشياء وتوجدها! وهذا مخالفٌ للعقول؛ لأنَّه لا يمكن وجود مخلوق بدون خالق، ولا يمكن حصولُ فعلٍ بدون فاعل أبدًا، فهذا الكون كلُّه، وهذا الخلق يدلُّ على الخالق ﷾، وأنَّه هو الذي أوجده وصرَّفه ودبَّره وكوَّنه. وفيها ردٌّ على المشركين الَّذين يؤمنون بالرب لكن يُشركون معه في العبادة، وذلك في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١﴾، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾، وقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾، وفيها ردٌّ على الجهميَّة والمعتزلة ومنكري الصِّفات، وفيها الرَّدُّ على منكري البعث، وذلك في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣﴾، والدِّين هنا هو الجزاء والحساب. وفيها الرَّدُّ على القدريَّة والجبريَّة، فهو ربُّ العالمين، وبه يُستعان على كلِّ شيء، وعلى العبد إخلاصُ العبادة له وسؤالُه المعونةَ والهدايةَ. وفيها الرَّدُّ على اليهود والنَّصارى ومن سار على طريقهم، ممَّن أخذ العلم وترك العمل، أو أخذ العمل وترك العلم، ففيها ردٌّ على كلِّ عالِمٍ لا يعمل بعلمه، وردٌّ على كلِّ عاملٍ لا يعمل على علمٍ، وفيها الرَّدُّ على المتصوِّفة الذين لا يأخذون بجانب الخوف والرَّجاء في عبادته، ويقتصرون على الحبّ والذَّوق، والمرجئةِ الَّذين يأخذون بجانب الرَّجاء دون الخوف،

والخوارِج الذين يأخذون بجانب الخوف دون الرَّجاء، ولهذا يقول العلماء: إنَّ هذه السُّورة تضمَّنت الردَّ على جميع الطوائف، فحُق لها أن تُسمَّى أم الكتاب؛ لأنَّ أمّ الشيء هي التي يرجع إليها الشَّيءُ، والقرآن كله يرجع إلى هذه السُّورة؛ لأنَّ القرآن كلَّه يدور على هذه المعاني التي تضمَّنتها هذه السُّورة(١).

في السُّورة بيانُ أهمِّيَّة الدُّعاء وشدَّة حاجة المسلم إليه؛ لافتقاره إلى ربِّه، فلا يقوم إلا به؛ ولذلك افتتح اللهُ تعالى كتابه في أوَّل سورةٍ منه بالدُّعاء، كما ختم به في آخر سورة.

احتوَت سورةُ الفاتحة على آداب الدُّعاء الَّتي ينبغي أن يتحلّى بها المسلم؛ ليظفرَ ببغيته من ربِّه تعالى؛ فأوَّلُها الإخلاص، بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾، ثم المتابعة، ففيها قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾، وشُرِع الإلحاح فيه، فسورة الفاتحة تُقرأ في كلِّ ركعةٍ، ويُؤمّن على دعائها، وفيها الجزمُ في الدُّعاء والعزم فيه، وذلك بطلب الهداية ورجائها من الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥﴾، وفيها حضور القلب فيه وعدم الغفلة، وذلك من جهة تهيئ الدَّاعي بالثَّناء على الله تعالى والإقبال عليه، وفيها أيضًا التَّوسُّل إليه، وقد جاء بأنواعه الثَّلاثة، وذلك بالتَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، والتَّوسُّل إليه بالعمل الصالح؛ حيث تقدَّم عليه قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾، وكذلك الدُّعاء للآخرين،

---

١) يُنظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ١/٣٠.

فيُستفاد من صيغة الجمع في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥﴾ دعاء المسلم لنفسه ولغيره، ثم يُؤمّن على الدُّعاء، وإذا دعا المسلم لأخيه وكل الله تعالى ملكًا يقول له: ولك بمثل⁽¹⁾. وفيها الدُّعاء بجوامع الكلم، فقد جمع دعاءُ سورة الفاتحة خيرَي الدُّنيا والآخرة، وفيها الجمعُ في الدُّعاء بين الرَّجاء والخوف، فيطلب النِّعمة رجاءً، وهي صراط الَّذين أنعم الله عليهم، ويستدفع النِّقمة خوفًا، وهي صِراط مَن سواهم، ويُستحبُّ للدَّاعي أن يكون على طهارة، وهو شرطٌ في الصَّلاة التي فرض الله فيها الفاتحة، وأن يتقدَّم بين يدي دعائه بالتَّوبة، كما في بعض أدعية الاستفتاح في الصَّلاة قبل قراءة الفاتحة: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَّ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»⁽²⁾.

كُلُّ شيءٍ مذكورٌ في سورة الفاتحة، فدليله حاضرٌ في الكون المُشاهَدِ، ومذكورٌ في الفاتحةِ نفسِها قبله أو بعده؛ فكونُ الحمد كلّه للهِ دليلُه: أنه ربُّ العالمين، وكونه سبحانه الرَّحمنَ الرَّحيمَ دليله: ربوبيَّتُه العامَّة لجميع الخلق، وكونه مالكَ يوم الدِّين دليلُه: وجودُ الظُّلم في الدُّنيا، ولا بدَّ من يومٍ يُحاسَب فيه الخلائق؛ لأنَّ هذا مقتضى رحمته وعدله، ولذلك توجّه العبد لله بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾ وسأل الله تعالى الهدايةَ لصراطه المستقيم للنَّجاة في الآخرة، وأن يُبعده عن طريق مَن نالوا عقابه.

---

١) انظر: صحيح مسلم (٢٧٣٢) وما بعده.

٢) أخرجه البخاري في صحيحه: ١٤٩/١ رقم٧٤٤، ومسلم في صحيحه: ٤١٩/١ رقم ٥٩٨.

تبثُّ السُّورةُ في النَّفس معانيَ جليلةً، لا غنى للعبد عنها، وذلك في الاستعاذة باللهِ تعالى والاستعانة به، والثِّقة بسَعةِ رحمته، والمداومة على حمده، وتذكُّر يوم الدِّين والجزاءِ والاستعدادِ له، وإخلاص العبادةِ لله وحده، والالتجاء إليه وسؤاله، وموالاة أوليائه وسلوك سبيلهم، ومجافاة أعدائه.

سورة الفاتحة تخليةٌ وتحلية، ولا بدَّ منهما معًا، فهي تخليةٌ من طريق الشَّيطان إلى تحليةٍ بالانصرافِ لله ربِّ العالمين، وتخليةٌ من الكفرِ إلى تحليةٍ بالشُّكر والحمد، وتخليةٌ من اليأس إلى تحليةٍ بالثِّقة برحمة الله، وتخليةٌ من الغفلة إلى تحليةٍ باليقظة والاستعدادِ ليوم الدين، وتخليةٌ من الشِّرك إلى تحليةٍ بإخلاص العبادةِ لله تعالى، وتخليةٌ من العجز إلى تحليةٍ بالاستعانة بالله تعالى، وتخليةٌ من الضَّلال إلى تحليةٍ بسؤال الله الهِداية، وتخليةٌ من الجهلِ والعناد إلى تحليةٍ بالعلم والاتِّباع، وتخليةٌ من طريق الضَّلال وأهله، إلى تحليةٍ باتِّباع طريقِ الهدى وأهله.

* * *

وَقفاتٌ مع آياتها

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

اختلفَ العلماءُ في البسملة: هل هيَ آيةٌ من الفاتحة أو لا؟ والرَّاجح -وهو قول الجمهور- أنَّها ليست آيةً منها، ولا في افتتاح أيِّ سورةٍ من القرآن، وإنَّما هي جزءٌ من آيةِ سُورة النَّمل بالاتِّفاق، بدلالة حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه؛ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ...**» الحديثَ[1]، فسُورة الفاتحةِ مُناصفةٌ بين العبد وربِّه، وإذا حَسَبْتَ السَّبعَ الآياتِ دون البَسملة؛ وجدتَّ منتصفَها قولَه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾ وهي الآيةُ الَّتي قالَ اللهُ فيها: هذا بيني وبينَ عبدي، وهي الَّتي تقسم السُّورة نصفين بينَ العبدِ والرَّبِّ؛ إذ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣﴾: ثلاثُ آياتٍ كلُّها حقٌّ لله ، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾ هي الآية الرَّابعة، يعني الوسَط؛ وهي قسمان: قسمٌ منها حقٌّ لله؛ وقسمٌ حقٌّ للعبد؛ وقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ كلُّها للعبد، وهذا يُوافقُ الحديثَ. أمَّا لو عُدَّتِ البَسملةُ من السُّورة فإنَّ منتصفها يكونُ آية: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣﴾، وهي حقٌّ لله وحده، وما بعدها ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾ مناصفةٌ بين العبد وربِّه،

---

[1] سبق تخريجه ص ١١.

ثمَّ ما بعدَها كلُّه للعبد، وهذا مخالفٌ للحديث. ثم من جهة السِّياق من حيث اللَّفظ، إذا قلنا: إنَّ البسملة آيةٌ من الفاتحة؛ لزم أن تكونَ الآيةُ السَّابعةُ طويلةً على قدر آيتين؛ ومن المعلوم أنَّ تقارب الآي في الطُّول والقِصَر هو الأصل.

ويترتَّب على هذا الخلافِ في البسملة حكمُ ترك قراءتها في الصَّلاة، وحكمُ الجهر بها في الصَّلاة الجهريَّة، والرَّاجح بناءً على ما قرَّرناه أنَّ قراءتها سُنَّةٌ وليست واجبةً، وكذلك فإنَّ السُّنَّة هي الإسرارُ بها.

في البسملة تنبيهٌ على أنَّ العونَ التَّامَّ والبركةَ إنما تكون من الله تعالى، فلا تُطلب من غيره، فمعنى البسملة: باسمِ الله أقرأُ -أو أتلو ونحو ذلك- مستعينًا به، متبرّكًا باسمه، فالجارُّ والمجرور متعلّق بمحذوف قُدِّر متأخِّرًا لفائدتين: الأولى: التَّبرُّك بتقديم اسم الله ، والثانية: الحصر؛ لأنَّ تأخير العامل يُفيد الحصر.

الابتداءُ باسمِ اللهِ هو الأدبُ الَّذي أدَّب اللهُ به عباده؛ ولذلك ندبَ الشَّرع إلى البدءِ بذكر الله في كثيرٍ من الأقوال والأفعال، وبذلك يكونُ المسلمُ مستعينًا بالله، مظهرًا فقره وحاجته إليه، طالبًا مَدَدَهُ في أفعاله وأقواله، سواءٌ كانت عبادة أو تجارة أو عادة، وفي استعانته بالله نجاحُه وفلاحُه، لو لم يظفر إلاّ بأجر الاستعانة وهي عبادةٌ لكان غانمًا.

البدءُ باسمِ الله رادعٌ للمرءِ عن معصيته فيما يُقبل عليه؛ فإنَّ مَن عرف الله تعالى استحى أن يبدأ فعله للمعصية باسمه.

على المؤمن أن يسعى بأن تكونَ أعمالُه التي يقومُ بها في الطِّيب مجانسةً لهذا التَّعبير الطَّيب.

في البدءِ باسمِ «الله» طلبُ التَّحلِّي بالعبوديَّة له.

كلُّ أسماء الله الحسنى تأتي تابعةً لاسمه تعالى «الله» فهو أصلُ الأسماء، ولا يُسمَّى به غيرُه، وهنا جاء الاسمانِ الكريمانِ: «الرَّحمنِ الرَّحيم» تابعَيْنِ له.

جمعتِ البسملةُ بين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾ وهما: صفتان للفظ الجلالة؛ يتضمَّنان تمامَ رحمة الله تعالى، وفيهما: الدلالة على الذَّات والصِّفة والأثَر. فـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ذو الرحمة الواسعة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ ذو الرَّحمة الواصلة؛ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دالٌّ على الصِّفة القائمة به سبحانه، فهو متَّصف بالرَّحمة في نفسه؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ دالٌّ على تعلُّق الرَّحمة بالمرحوم، فهو مُوصلُ الرَّحمة إلى خلقه؛ ولو أنه جيء بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أو بـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ وحده لشمل الوصفَ والفعلَ؛ لكن إذا اقترنا فُسِّر ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالوصف؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالفعل.

الرَّحمنُ أوسعُ أسماء الله تعالى، والرَّحمة أوسعُ صفاته، والعرشُ أوسع مخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه]، فاستوى بأوسع صفاتهِ على أوسع مخلوقاتهِ، وكتبَ لمَّا خَلَقَ الخَلْقَ كتابًا، فهو عنده فوق عرْشه: «**إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١)، وكان هذا الكتابُ العظيمُ الشأن كالعهدِ منه سبحانه للخليقةِ كلِّها بالرَّحمة لهم، والعفو عنهم، والصَّفح عنهم، والمغفرة والتَّجاوُز، والسَّتر والإمهال، والحِلم والأناة.

إنّ المسلم ليستشعرُ عظمةَ الله تعالى ومنَّتَه، وهو يعطِّر فمه كلَّ وقتٍ بلفظ الجلالة، وقد قُرِن بأكبر نعمةٍ أنعمها اللهُ على عباده، ألا وهي رحمةُ اللهِ تعالى الَّتي وَسِعَت كلَّ شيء.

---

١) سبق تخريجه ص ٢٢.

على المؤمن مجافاةُ اليأسِ والبعدُ عن القنوط؛ فالبسملة تذكره كلَّ حينٍ بأنَّ الله تعالى رحمنٌ رحيم ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر]، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف]، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر].

فإنَّ كلَّ من استقرَّت في نفسه سعةُ رحمةِ الله؛ لا يمكن أن يَدِبَّ إليه اليأسُ ولو مثقالَ ذرَّة، فهو متفائلٌ في سرَّائه وضرَّائه، يُحسن الظَّنَّ بربِّه في السَّعة والضِّيق.

اختيارُ هذينِ الاسمين يدعو لاطمئنان القلب في استفتاح القرآن الكريم، ففيهما الجمالُ والتَّهدئة والسَّكينة.

البدءُ بهذين الاسمينِ يجعل الإنسانَ ينظر إلى ربِّهِ بعين الرَّجاء دائمًا، ويفتحُ له ذلك بابَ الأمل، ويجعلُ العبدَ يثق برحمة الله، وأنَّه لن يخذُله ولن يُسلِمه ولن يطرُده إنْ هو عاد إليه، مهما استعظم العبدُ ذنوبه وأيِس من نفسه.

في اسمي «الرَّحمنِ الرَّحيم» إشارةٌ إلى ندب الخلق إلى التَّحلِّي بصفة الرَّحمة، كما في حديث: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ؛ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شِجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ**»(١).

لا بدَّ للمؤمن أن يُراعيَ دائمًا، في ابتداء أموره ونهايتها، إلهيَّة الله تعالى وسَعة رحمته وتمامها، فهو يُكرِّر ذلك كثيرًا في يومه وليلته، بصلاته وذكره.

* * *

---

١) أخرجه الحاكم في مستدركه: ٤/١٧٥ رقم ٧٢٧٤، وصححه، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

في البدءِ بالحمدِ سبقُ حمدِ اللهِ وتمجيدِه وتعظيمِه، وإعلانُ محبَّتِه، والثَّناء عليه سبحانه، على سائر الأمور، وإرشادٌ للعباد أن يتقدَّموا بحمد الله تعالى والثَّناء عليه وتمجيده في سائر أحوالهم، ومكاتَباتهم، وكان هديه ﷺ في خُطبه افتتاحُها بالحمد.

الحمدُ: هو وصفُ المحمودِ بالكمال مع المحبَّة والتَّعظيم، أمَّا مجرَّدُ الوصفِ بالكمال، دونَ تعظيمٍ ومحبَّة، فيُسمَّى مدحًا لا حمدًا. و«أل» في «الحمد» للاستغراق، فاللهُ له جميعُ المحامد الكاملة.

اللام في «لله»؛ للاستحقاق والاختصاص؛ فاللهُ تعالى مُستحِقٌّ للحمدِ الكامل من جميع الوجوه، ومختصٌّ به؛ فهو يُحمد على كمال ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ويُحمد على خلقه ونعمته، وعلى وحيه وهدايته، وعلى قضائه وقدره؛ ولهذا كان النَّبيّ ﷺ إذا أصابه ما يسرُّه قال: «**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»؛ وإذا أصابه خِلافُ ذلك قال: «**الْحَمْدُ لِلهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»(١).

بين الحمد والشُّكر عمومٌ وخصوص، فالحمدُ أخصُّ من الشُّكر؛ لأنَّه لا يكونُ إلا باللِّسان، وأمَّا من حيثُ ما يقع عليه: فالشُّكر أخصُّ؛ لأنَّه لا يكون إلا على النِّعمة.

---

١) أخرجه ابن ماجه في سننه: ١٢٥٠/٢ رقم ٣٨٠٣، وأخرجه الحاكم في المستدرك: ٦٧٧/١ رقم ١٨٤٠، وقال: «حديثٌ صحيح الإسناد». وصحَّحه الألباني في الجامع الصغير وزياداته (٩٦٧٨)، وتعليقه في الصحيحة يفيد توقفه (٢٦٥).

حمدُ اللهِ تعالى من أكمل أنواع الذِّكر؛ ولذلك افتتح اللهُ تعالى كتابه بالحمد، وبَيَّن أنَّ التَّسبيح بحمده ديدنُ كلِّ المخلوقات؛ فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾[الإسراء].

قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١﴾ متضمِّنٌ لتوحيدِ اللهِ تعالى بأنواعه، فاللهُ تعالى مختصٌّ بالحمد الكامل؛ لتفرُّده بالربوبيَّة، وإنَّما يكون هذا الحمدُ بوصفه بما يجب له من الكمال المطلق وإثباته له، وبإفراده بالعبادة.

«الحمدُ لله» كلمةٌ لا تُردَّد على اللِّسان فحسبُ، وإنَّما هي في مجموعها كلمةٌ تحمل العبوديَّة والحبَّ والثَّناء والشُّكر والعِرفان، ومن استحضرَ معانيها خرج الحمدُ من قلبه قبلَ لسانه، فأصبح صاحبَ قلبٍ شاكر، ولسانٍ شاكر، وجوارحَ شاكرة، والتَّوفيق لهذا نوعُ اصطفاء؛ إذْ إن الشَّاكرين قلّة.

أوَّلُ ما يُحمد عليه الحقُّ تبارك وتعالى الهدايةُ إلى توحيده، فيستحضرُ الحامد أنَّه إله واحدٌ لا نِدَّ له ولا نظيرَ ولا شبيهَ ولا صاحبةَ ولا ولدَ له، يخلقُ ويرزق، ويُعطي ويمنع، ويخفضُ ويرفع، واستحضارُنا لهذا المعنى حين ننطق «بالحمد»؛ من تمام معرفتنا بمنّة الله علينا، وما هدانا إليه من عبادتِه وحدهُ لا شريك له.

وحتى يكون العبدُ حامدًا لله تعالى حقّ الحمد، فلا بدَّ أن يُريد بكلِّ أقواله وأفعاله وجهَ الله تبارك وتعالى، فإذا كان هذا متحقِّقًا كان برهانًا على صدق حمده، وإن نقص نقص بقدره.

قَدَّم وصفُ الألوهيَّة على وصف الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ اسم «الله» عَلَمٌ له، فهو مختصٌّ به، وتتبعُه جميعُ الأسماء.

حقيقةُ الرَّبِّ: مَنِ اجتمع فيه ثلاثةُ أوصاف: الخَلق، والمُلك، والتَّدبير. وهذه ليست إلا لله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس].

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على تفرُّد الله بالرُّبوبيَّة؛ لأنَّ «العالمين» كلُّ ما سوى اللهِ تعالى.

ربوبيَّةُ الله للعالمينَ أعظمُ دليلٍ على ألوهيَّته، وأنّه وحدَه سبحانه المستحقُّ للعبوديَّة؛ وفيها ردٌّ على المشركين الَّذين يؤمنون بالرَّبِّ لكن يُشركون معه في العبادة، فما دام ربَّهم جميعًا فلا يستحقُّ أحدٌ العبادة غيرُه؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

لو عقل المرءُ ضَعفهُ وحاجتهُ إلى ربوبيَّة مولاه في كلِّ شيء؛ لأورثه ذلك الحبَّ والخضوعَ لله ربِّ العالمين، ولو تفكَّر في أمره الكوني وتفرُّده به وحدَه، لعَلِم أنَّه لا يحقُّ لأحدٍ أن يُشْركَ معه في أمره الشَّرعيِّ، تحليلًا أو تحريمًا أو تشريعًا.

ربوبيَّتُه للعالمينَ دليلُ كمال غناه، وتمامُ فقْرهم إليه بكلِّ وجْه واعتبار.

علينا أن نتيقَّنَ أنَّ تربية الله لعباده لا تَعدلها تربيةُ أحدٍ من البشر كائنًا من كان؛ فاللهُ تعالى يُربِّي عباده بما يُجْرِي عليهم من الأقدار، فإذا قبلَ العبدُ تربية الله له ورضي بها؛ ولم ينظر للقَدَر من جهةٍ واحدة فقط -وهي جهة العقوبة والألم وما يكتنفها من مشقَّة- وإنَّما نظر للقَدَر بتعدُّد الحِكَم، وعلم أنَّ الله يسوقُ له مصالحه فيها من حيث لا يحتسب ولا يشعر، رضي الله عنه، وأراه آثار رحمته به ولطفه، فيحمدُه أن عجَّلها له في الدنيا ولم يؤخرها له، فعذابُ الدُّنيا أهونُ

من عذاب الآخرة، بل لا مقارنةَ بينهما، ثم يحمده على أن جعل ما أصابه على ما أصابه، ورأى لطف الله به، إذ لم يضاعف مُصابَه، فيكونَ أعظمَ مما أصابه.

في الآية إثبات النُّبوَّة؛ فكونُه ربَّ العالمين لا يليقُ به سبحانه أن يترك خلقه سُدى، لا يُعرّفُهم عبر رسله ما ينفعُهم في معاشهم ومعادهم وما يضرُّهم.

وفيها الرَّدُّ على الملاحدة الَّذين يرون أنَّ العالم ليس له ربٌّ، وإنَّما هو الذي يكوّنُ نفسه! والطبيعةُ هي التي تُكوّن هذه الأشياء وتُوجدها! وهذا مخالفٌ للعقول؛ لأنَّه لا يمكن وجودُ مخلوقٍ بدون خالق، ولا يمكنُ حصولُ فعلٍ بدون فاعل أبدًا، فهذا الكونُ كلُّه، وهذا الخلقُ يدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى، وأنَّه هو الَّذي أوجده وصرَّفه ودبَّره وكوَّنه..

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

وفيها الرَّدُّ على القدريَّة والجبريَّة، فهو ربُّ العالمين، وبه يُستعانُ على كلِّ شيء، وعلى العبد إخلاصُ العبادةِ له، وسؤالُه المعونةَ والهداية.

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

في ذكر هذين الاسمينِ ثناءٌ على اللهِ تعالى، وقد تقدَّم قولُ النَّبيّ ﷺ: «**وَإِذَا قَالَ: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**»(١)، والثَّناء معناه: تكرير الحمد، وهنا وقع ثناءٌ مع شيء من تفصيل.

لما كانَ في اتِّصافه بربِّ العالمين ترهيبٌ وتخويفٌ؛ أتبعه بالرَّحمنِ الرَّحيم لما فيهما من التَّرغيب؛ فإنَّ من فهم دلالة هذين الاسمين وقع في قلبه رجاءُ رحمة الله، فيجمع في صفاته بين ما يُرغَب وما يُرهَب وما يُرجّي وما يُخوِّف.

تُقرِّر هذه الآية أنَّ تربيته تعالى لخَلْقه نوعان؛ عامَّة وخاصَّة؛ فالعامَّة: هي خَلْقُه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم الَّتي فيها بقاؤهم في الدُّنيا، وهي مبنيَّةٌ على رحمته الواسعة الشَّاملة التي تعُمُّ جميعَ خَلْقِه، وتسعُ جميع عباده، ويدلُّ عليها اسم «الرَّحمن»، وأمَّا التَّربية الخاصَّة: فهي تربيته لأوليائه، فيربِّيهم بالإيمان، ويوفِّقهم له، ويكمِّله لهم، ويدفع عنهم الصَّوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتُها: تربية التَّوفيق لكلِّ خيرٍ، والعِصْمة من كلِّ شرٍّ، ويدلُّ عليها اسم «الرَّحيم»، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ [الأحزاب]؛ فالرَّحيم على وزن فَعِيلٍ، وفَعِيلٌ تُفيد الدَّيمومة والاستمرار، بمعنى أنَّ رحمته بالمؤمنين هي رحمةٌ دائمةٌ مستمرَّةٌ لا تنقطع أبدًا، فالمؤمن مرحومٌ في حياته، ومرحومٌ في قبره،

---

١) سبق تخريجه ص ١١.

ومرحومٌ عند حشره، ورحمةُ الله ملازمةٌ له في كلِّ أحواله، ولعلَّ هذا هو السرُّ في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرَّبِّ.

صرّح تعالى باسمي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾ وقدَّمهما؛ لمعانٍ عديدةٍ حكيمةٍ، منها: بيانُ أنَّ من أهمِّ مظاهر ربوبيَّته رحمتُه بالخلقِ، وأنَّ رحمته سبقت غضبه، وأنَّ خَلقه للخلق رحمةٌ لهم، ولكن منهم من لم يقبل تلك الرَّحمة ولم ينتفع بها، فصار أهلًا للأخذ بالعدل والمعاملة بالعُقوبة بدل الرَّحمة.

ذِكرُ الرُّبوبيَّة والرَّحمة يؤدِّي إلى الحبِّ، فهو محبوبٌ لكماله وأنَّه ربُّ العالمين، ومحبوب لرحمته، فالقلوب مجبولةٌ على حبِّ من أحسن إليها، ولذا قرنَ سبحانه رحمته هنا بربوبيَّته للعالمين، فقال سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾، فشمل جميعَ الخلائق برحمته؛ قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦]. فبينَ خَلْقه وبينه سببُ العبوديَّة؛ وبينه وبينهم سببُ الرَّحمة. ولو تأمَّل المذنبُ حالَه وحالَ الخَلق مع برِّه وإحسانه الذي عمَّهم به، وكيف يشكُرون غيره، ويعصُون أمره، ويُواقعون نَهْيه، ثمَّ هو سبحانه يَهديهم ويبتليهم بالخير والشرِّ ويمهلُهم؛ لأوجب ذلك في القلب توبةً وحياءً ومزيدَ حُبٍّ وتعلُّقٍ، ورجاءٍ وحمد وشُكرٍ له ﷾.

أعظمُ ما يَستدرُّ به العبدُ رحمةَ ربِّه: أن ينكسرَ بين يديه، وأن يُظهرَ عبوديته له وذلَّه وعجزه، وفقرَه لرحمته وهو محسنٌ الظَّنَّ به ﷻ.

على المربِّي أن يتحلَّى بالرَّحمة، فالمصلح ينبغي أن يكون رحيمًا، ومَنْ تعلَّق بصفةٍ من صفاته ﷻ -التي يَليق بالعباد التَّحلِّي بها- أخذته بيده حتى تُدْخِلَه عليهِ،

ولذلك حريٌّ بالعبد أن يتَّصفَ بها ويتخلَّق، لعلَّها أن تُوصله إلى ربِّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف].

في الآية تقريرٌ لعقيدة الإيمانِ بالقدر؛ لأنَّ الإنسانَ يرجو رحمة الله تعالى، وهو يعلمُ فقره إليه.

وفيها ردٌّ على الجهميَّة والمعتزلة ومنكري الصِّفات، وعلى الخوارج الَّذين يأخذون بجانب الخَوف دون الرَّجاء.

* * *

قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

هذه الآيةُ تمجيدٌ للرَّبِّ جلَّ وعلا؛ كما في الحديث القدُسيِّ: «**وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَجَّدَنِي عَبْدِي**»[1]. **والتَّمجيد هو التَّعظيم**، وهو هنا بإفراده سبحانه بالملك يومئذٍ بلا دعوى من أحدٍ.

وفيها إثباتٌ لليَوم الآخِر، والبعثِ بعدَ الموتِ، والحسابِ والجزاءِ، والرَّدِّ على منكريه.

ذِكرُ أنَّه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣﴾ بعد ذكر كونه ربًّا للعالمَين، بيانٌ لكونه تعالى ليس ربًّا للعالمين في الدُّنيا فقط، بل هو ربُّهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ من مقتضى حمده ورحمتِه وعدلِهِ أن يُجازيَ العاملين على أعمالهم، ويُوفِّي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

حقيقةُ الملك: إنَّما تتمُّ بالعطاء والمنع، والإكرام والإهانة، والإثابةِ والعقوبة، والغضبِ والرِّضا، والتَّولية والعزْل، وإعزازِ مَن يليق به العِزُّ، وإذلالِ مَن يليق به الذُّل؛ قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٢٧﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ۝٢٩﴾ [الرحمن]. فتصرُّفه في مُلكه دائرٌ بين العدل والإحسان، والحِكْمة والمصلحة والرَّحمة، ولا يخرج تصرُّفه عن ذلك.

---

[1] سبق تخريجه ص ١١.

في قوله: ﴿ مَلِكِ ﴾ قراءتان: «مَالِكِ» و«ملِكِ»؛ واللهُ عز وجل مالكٌ وملكٌ في الدُّنيا والآخِرة، أمَّا النَّاس في الدُّنيا ففيهم مَن هو مالكٌ وليس بملِك، ومن هو ملِكٌ وليس بمالكٍ لما قد يملكُه غيره، أمَّا الله تعالى فملكٌ مالكٌ وارثٌ تامُّ المُلك في الدُّنيا، ولا مَلِكَ ولا مَالِكَ غيرَه في يومِ الحسَاب.

خُصَّ يومُ الدِّين بإضافة الملك إليه؛ لخطورته وعِظَمه، ولأنَّه ختامُ الأيام وثمرتها، ولأنَّه يظهرُ فيه ملك الله كاملًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾[الانفطار].

أضاف تعالى مُلكه ليوم الدِّين فحسبُ مع أنَّه مالكُ يوم الدِّين والدُّنيا؛ لأنَّه في الدُّنيا قد يوجدُ من يملكُ شيئًا منها -مع كونه خاضعًا لملك الله- أمَّا يومُ القيامة فلا مالِكَ ولا ملِكَ إلا الله ﷻ، قال عزَّ من قائل: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]، وقال: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه]، فهو الذي يملكُ هذا اليوم وحده، ويتصرَّف فيه كما يشاء، الكلُّ مذعنون لعظمته، وخاضعون لعزَّته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه. قال ﷺ: «**يَقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**»⁽¹⁾. حتى الَّذين ملَّكهم في الدُّنيا؛ فقد زال مُلكُهم في الآخرة؛ لأنَّ مُلكهم في الدُّنيا مُلكٌ ناقص لا مُلكٌ تام؛ فالمُلك التامُّ الحقيقيُّ هو لله وحده في الدُّنيا والآخرة: ﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان].

---

١) أخرجه البخاري في صحيحه: ٩/١١٦ رقم ٧٣٨٢، ومسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٤٨ رقم ٢٧٨٧.

من فَقِهَ اسمَ اللهِ المالكِ، والملكِ، وفَهِمَ أنَّ المُلكَ كلَّه للهِ، والأمرَ كلَّه للهِ، وكلَّ مخلوقٍ في هذا الكون طائعٌ له ولأمره؛ صحَّح نظرته للخلْق، وعَرَفَ أنَّهم مهما بلغوا، ومهما ملكوا من أموالٍ ومناصبَ وألقابٍ، إلا أنَّهم في حقيقة أمرهم فقراءُ عاجزون مملوكون لربِّهم، وأنّ اللهَ أَمْلكُ لما يملكونه من مُلكهم هم له، وأمرُ اللهِ أسرعُ إلى ما يملكونه من أمرهم هم إليه، وهذا هو الملك التَّامُّ. وهذا الفَهْم يُوَلِّد العزَّةَ في قلب المؤمن، وبه يتحقَّق «توحيد الذُّلِّ لله»، وهو ركنٌ من أركان العبوديَّة.

الآية تدفعُنا إلى أن نخافَ اللهَ تعالى في عباده، وألا نخاف عبادَه فيه، ولا نرجو غيرَه تعالى، وكلَّما ازداد العبدُ علمًا عن ربِّه ومعرفةً به؛ ازداد نورًا في عبادته، وعامَل خلقه بما ينبغي.

سُمِّي يومُ القيامة بيوم الدِّين؛ لأنَّه يومُ الجزاءِ بالعدلِ ويومُ القهر، ففيه يُدان النَّاس في الحقوق بعضُهم من بعض، ويدينُ اللهُ النَّاسَ بأعمالهم فيُجازيهم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ، وفي هذا حثٌّ للنَّاس على أن يُحسِنوا العملَ والاستعدادَ لذلك اليومِ الَّذي يُدانُ فيه العاملون، ودفعٌ بالعقلاء لإقامةِ الحقِّ والعدل، والاستقامةِ على المنهج الصَّحيح؛ لأنَّ كلَّ ذلك سيكونُ أمامهم يوم القيامة.

جزاءُ اللهِ لخلقه ومكافأتُهم على أعمالهم ليس مختصًّا بيوم القيامة، بل الله حكمٌ عدلٌ يُجازي المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، وهذا كثيرٌ في الدُّنيا قبل الآخرة، لكن قد لا يظهرُ ذلك في الدُّنيا، وقد يكون الجزاءُ بتدبيرٍ خفيٍّ، لا يُدرك العبدُ أنَّه جزاءٌ على عمله، وقد يؤخَّرُ لمعنًى، أمَّا في الآخِرة فيظهر ذلك على أكمل الوجوه، ولهذا سُمِّي يومُ القيامة بيوم الدِّين.

الإيمانُ بيوم الدِّينِ يبعثُ في النَّفس الطُّمأنينةَ، فعملُ المؤمن الصَّالح لن يذهبَ سُدىً، وجُهدُه لن يضيع هباءً.

إذا كانت نعمُ الله تعالى كلُّها تستحقُّ الحمدَ، فإنَّ مُلكه ليومِ الدِّين محمدةٌ يستحقُّ عليها الحمد الكثير؛ لأنَّ هذه الملكيَّة لهذا اليومِ هي الَّتي حَمَتْ حقَّ كلِّ ضعيفٍ أُخِذَ حقُّه، وكلِّ مظلومٍ ظُلِم في هذه الدُّنيا، فالدُّنيا لا يُستوفَى فيها الحساب والجزاء كُلُّه، وإن كان ذلك يقعُ على سبيل الإجمال، وإنَّما تُستوفى الحقوقُ بكاملها مفصَّلةً فيأخذُ كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، ويُقتصُّ لكلِّ مظلوم ممَّن ظلمه في الآخرة، واللهُ تعالى لا يظلم مثقالَ ذرّة؛ وذلك لتمام ملكه، فإنَّما يَظلمُ من نقص مُلكه، أمَّا ربُّ العزَّة فإنَّ ملكه ليس فيه نقصٌ أبدًا، وأكملُ ظهور لتمام ملكه في يوم الدِّين.

في هذه الآية إشارةٌ إلى أنّ الحياتين -الدُّنيا والآخرة- متَّصلتان في حقيقتِهما؛ يربط بينهما فاصلٌ يتخلَّلهما، فيه من حقيقتهما، وهو الموتُ، آخرُ منازل الدُّنيا، وأوَّل منازل الآخرة.

مَن تمَّ له العلمُ بأنَّه سبحانه مَلِكُ يوم الدِّين، لا يرى لضرورات الدُّنيا الزَّائلة تحكُّمًا فيه؛ فيستعلي عليها، ولا يُخالجه شكٌّ في جزاء سعيه إذا تأخَّر عن هذا العمر القصير المحدود المحصور في هذه الدُّنيا، فيُثمر ذلك العمل لوجه الله تعالى، وانتظار الجزاء منه وحده، حيث يقدِّره الله؛ في الدُّنيا أو في الآخرة سواء، وتملأ قلبَه الطُّمأنينةُ والثِّقة، ويتولَّد عنده الإصرارُ على التَّمسُّك بالحقِّ.

إنَّ عقيدةَ الإيمانِ بيوم القيامة مَفرقُ الطَّريقِ بينَ العبوديَّة للنَّزوات والرَّغائب، وانطلاقةِ النَّفس من رِقِّ شهواتها إلى رحاب العبوديَّة لله وحده، وبين الخضوعِ لتصوُّرات الدُّنيا وقِيَمها وموازينها، والتعلُّق بالقِيَم الربَّانية والاستعلاء على منطق الدُّنيا الفانية، ولا تستقيمُ حياةُ البشر على منهج الله ما لم يؤمنوا بيوم البعث والنُّشور، وما لم تطمئنَّ قلوبهم إلى أنّ جزاءَهم على الأرض ليس هو نصيبَهم الأخير، وما لم يثقِ الفردُ محدودُ العمر بأنَّ له حياةً أخرى تستحقُّ أن يُجاهِدَ لها، وأنْ يُضحِّي لنُصرة الحقِّ والخير، معتمدًا على العِوَض الَّذي يلقاه فيها، وما يستوي المؤمنونَ بالآخرة والمنكرونَ لها في شعورٍ ولا خُلُقٍ ولا سلوكٍ ولا عمل؛ فهما صنفانِ مختلفانِ من الخَلق، وطبيعتانِ متميِّزتانِ لا تلتقيانِ في الأرضِ في عملٍ، ولا تلتقيانِ في الآخرةِ في جزاء، وهذا هو مَفرِقُ الطَّريق بينهما⁽¹⁾.

فمن تدبَّر ذلك لم يَقِرَّ له قرارٌ على معصيةٍ، أو تنكُّبٍ لطريق الهدى، بل يُثمر ذلك وَجَلَ القلبِ ويقظتَهُ من غَفْلتِهِ أو غفوتِه.

في الآيةِ ردٌّ على المتَصوِّفَةِ الَّذين يُخِلُّون بجناح الخَوفِ والرَّجاءِ في عبادته عز وجل، ويقتصرونَ على الحبِّ والذَّوقِ، وعلى المرجئةِ الَّذين يُغالُونَ في الرَّجاء، ويُفرِّطُونَ في الخوف، فيُعطِّلونَ العملَ، ويَقصُرونَ الإيمانَ على تصديقِ القلب، وقد خدعهمُ الشَّيطانُ؛ إذ لو آمنَ القلبُ حقيقةً لأورثَ ذلك العملَ، كما أورثَ من قال: «**التَّقْوَى هَهُنَا**»⁽²⁾ عليه الصَّلاة والسَّلام. وكلُّ من استحضر الوُقوفَ بين يدي اللهِ

---

١) يُنظر: في ظلال القرآن: ١/٢٥.

٢) يُنظر: صحيح مسلم (٢٥٦٤).

للحسابِ والجزاءِ؛ وقع في قلبه الخوفُ منه، كما أنَّ من استحضرَ رحمةَ الرَّحيم الرَّحمان طمِعَ فيه ورجاهُ.

وفيها إثباتُ النُّبوَّة؛ لأنَّ يوم الدِّين هو الَّذي يُحاسِبُ فيه اللهُ عبادَه بأعمالهم، فيُثيبهم على الحسناتِ، ويُعاقِبُهم على السَّيِّئاتِ، وما كانَ اللهُ تعالى ليُعَذِّبَ أحدًا قبلَ إقامةِ الحجَّةِ عليه، بإرسال الرُّسل مبشِّرينَ ومُنذِرينَ، وذلك مقتضى كونهِ الرَّحمنَ الرَّحيم.

* * *

قولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

هذهِ الآيةُ العظيمةُ هي الآيةُ الوُسطى في الفاتحة، وهي الَّتي بينَ العبدِ وربِّهِ، كما جاء في الحديثِ القُدُسيِّ: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ... فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٤﴾ قَالَ اللهُ: هَذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1]، وقد سمَّاها بعضُ العلماءِ «سرَّ القرآن»، فإليها يرجعُ فعلُ الإنسان وهو التَّعبُّدُ، وصنَّف فيها العلماءُ الكتبَ والمؤلفاتِ، فقد ألَّف شيخُ الإسلام الهَرَوِيُّ «منازل السَّائرين في ذكر منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٤﴾»، ثم شرحه ابنُ القيِّم في كتابه «مدارجُ السَّالِكين»؛ فالدِّينُ كلُّه مَرجِعُه إلى هذه الآية، ومدارُ التَّوحيد والعبوديَّة قائمٌ عليها.

لما ذكر تعالى يومَ الجزاء الَّذي سيُجازَى كلُّ إنسانٍ فيه على ما عمل، دلّ عبادَه على ما خلقهم لأجله وسيُجازيهم عليه- وهو عبادتُه- للقيامِ بها على وجهِهَا، وهذا التَّرابُطُ يدلُّ على أنَّ القَضيَّةَ الَّتي لا بُدَّ أن يهتمَّ بها الإنسانُ في حياته هي: عبادتُهُ لله.

في قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إثباتُ النُّبوَّة وإرسالِ الرُّسل؛ فإنَّ طريقَ التَّعبُّد وما يُعبد به لا سبيلَ إلى معرفتِه إلا عن طريقِ رُسُله.

وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ إيمانٌ بالقَدَر؛ لأنَّ العبدَ يطلبُ العونَ من القادرِ على كلِّ شيءٍ، وبيده أزِمّة الأمور، ويتصرَّفُ كيفَ يشاء.

---

[1] سبق تخريجه ص ١١.

قدّمَ المعمولَ على العامِلِ، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٤﴾، ولم يقل: «نعبُدُك ونستعينُك»؛ لأنَّ التَّقديمَ يدُلُّ على الحصر، والمعنى: نخصُّكَ وحدَك بالطَّاعةِ، ولا نصرفُ شيئًا من العبادة لأحدٍ غيرِك، وهذا يُفيد وجوبَ إخلاصِ العبادةِ لله تعالى، وأنَّها لا تَصِحُّ إلا بذلك.

وفي تقديمِ المعبودِ والمستعانِ على الفِعلَين، الأدبُ مع اللهِ، بتقديم اسمِه على فعلِهم، والاهتمامُ وشدَّةُ العنايةِ به.

كرّرَ الضَّميرَ في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٤﴾ للدِّلالة على قوَّة الاقتضاءِ والتَّخصيص والاهتمام، وهذا يُفيد وجوبَ إخلاصِ العبادةِ للهِ تعالى، والاستعانةِ بهِ وحدَهُ.

أشارتِ الآيةُ الكريمةُ إلى تحقيقِ معنى «لا إلهَ إلا الله»؛ لأنَّ معناها مُركَّبٌ من أمرين: نفيٍ وإثباتٍ. فالنَّفيُ: بالكُفر بما يُعبدُ مِن دُون اللهِ تعالى، وهو في تقديم المعمول الَّذي هو «إيَّاك»، والإثباتُ: إفرادُ اللهِ تعالى وحدَه بالعبادة، وهو بقول: «نعبد».

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٤﴾ عليها مدارُ دعوة الرُّسل؛ فجميعُ الرُّسُل من أوَّلِهم إلى آخِرِهم دعَوا إلى توحيدِ الله وإخلاصِ عبادتِه ونبذِ الشِّرْك، فمن فهم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٤﴾ لا يُمكنُ أن يصرفَ شيئًا من أنواعِ العبادةِ لغيرِ اللهِ تعالى.

العبادةُ تعني شيئين: غايةَ الحبِّ بغايةِ الذُّلِّ والخُضوع، وهي مُثمرةٌ للطَّاعة؛ فباتِّباع الأوامر واجتناب النَّواهي تَتبيَّن حقيقةُ العبوديَّة؛ ولهذا جعل اللهُ تعالى اتِّباعَ رسوله علَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادّعاها.

مقامُ العبوديَّةِ مقامٌ عظيمٌ يَشرُفُ به الإنسان، فقد سَمَّى اللهُ رسولَهُ عبدَهُ في أشرف مقاماته؛ فقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف]، وقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن]. فسماه عبدًا عندما أنزل عليه الكتاب، وعندما أسرى به، وعند قيامه بالدَّعوة.

الاستعانةُ الصَّادقةُ تجمعُ أصلينِ: الثِّقةَ باللهِ، والاعتمادَ عليه، فَمَنْ علّقَ قلبَه باللهِ تعالى، واثقًا في قُدرته ورحمته، وتوكّل عليه؛ أعانهُ وقضى حاجَتَهُ.

قدَّمَ الإقرارَ باستحقاقِ العبوديَّةِ لله وحده على الدُّعاء بالعَون؛ لأنَّه من بابِ تقديمِ المسَائل المقاصِد على الوَسَائل، وتقديمِ حقِّ الخالقِ المعبودِ على حقِّ العبدِ المخلوق. ومجتمعُ الجاهليَّةِ اليومَ قائمٌ على دعوى رعايةِ حقِّ المخلوقينَ، معَ محُاربَةِ حقِّ الخَالِقِ، فكم وضعوا من القَوانِين الَّتي تُقرِّر حقوقَ الإنسانِ، وحقوقَ الحيوانِ، وما شابَه ذلك، ولكنَّهم يُشعلونها حربًا ضَروسًا على من يَدعو إلى القيامِ بحقِّ اللهِ تعالى.

الدِّينُ نِصفَانِ: نصفُه عبادةٌ، وهي الغايةُ والمقصودُ من خلق النَّاس، ونصفُه توكُّلٌ واستعانةٌ، وما الحياةُ إلا عبادةٌ واستِعانة، بل إنَّ كلَّ ما يُواجهُه العبدُ في حياته، إمَّا يدعوه لخضوعٍ واستكانةٍ، وإمَّا يدعوه لسؤالٍ واستعانةٍ، وقد جمعتِ الآيةُ بينَ العبادةِ والاستعانة؛ فإنَّ العبادةَ لا تحصُلُ إلا بعَونِ الله.

عَطفُ «إيَّاكَ نسْتعينُ» على «إيَّاكَ نعبُد» يُفيد: أنَّ من سعى للخير فحقَّق العبادةَ لله؛ فإنَّ اللهَ يحقِّق له العَون، فكأنَّ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ سببٌ لاستجابة الدُّعاء في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فمن قدَّم حقَّ اللهِ بالعبادة؛ أعطاهُ اللهُ حقَّهُ بالمعونة، ويسَّرهُ لليُسرى.

درجاتُ العَون والوِلاية، تتفاوَتُ بحسب تفاوت النَّاس في العبادة، فكلَّما كان المرءُ أكثرَ تعبُّدًا لله؛ حَصَلَ له من العَون والتَّأييد ما هو أكثرُ، فالمَعونة تأتي على قدْر العبادة.

في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾ إشارةٌ إلى أنّ الدُّعاءَ بعدَ العبادةِ مشروعٌ ومُستحبٌّ، وهو سببٌ من أسباب إجابةِ الدُّعاء، وأفضلُ هذهِ العباداتِ الصَّلاةُ؛ لذلك كانَ النَّبيّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ بادَرَ إلى الصَّلاة.

تضمَّنَتِ الآيةُ أنفعَ الدُّعاءِ؛ قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رحمه الله: «تأمَّلتُ أنفعَ الدُّعاءِ، فإذا هو سُؤالُ العَون على مَرضَاتِه، ثمَّ رأيتُه في الفاتحة، في: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾»(١).

الاستعانةُ باللهِ على تحصيلِ مقصدِكَ ومرادِكَ هي سبيلُ تحقُّقِه، فلا يَعجز قلبُك عن التَّعلُّق بالله، والرُّكونِ إليهِ في صغيرِ الأمرِ وكبيره، ولْتَجْعل التفاتَ قلبِكَ لله، لا للأسباب، ولتَكُنْ حالُكَ وأنتَ تأخذ بالأسبابِ المشروعةِ وكأنَّها لا شيء لذاتها، فهذا هو المحَكُّ الصَّعْبُ؛ أن تأخُذَ بها وأنتَ قاطعُ الطمعَ فيها، مُتعَلِّقٌ بمسبِّبِها سبحانه.

في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تبرُّؤٌ من الحَوْل والقوَّة إلا بإذن الله، وتحقيقٌ لكلمة «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»، فعلى الإنسانِ التَّبرُّؤُ من حَولِه وقُوَّتِه، وتفويضُ أمرِهِ لله ؛ لأنَّه لا قِيامَ لأمرِ العبدِ على الوجه الأكملِ إلا بمعونةِ الله، والتَّفويضِ إليه، والتَّوكُّل عليه.

---

١) يُنظر: مدارج السالكين: ١/١٠٠.

قولُه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ علاجٌ للرِّياء؛ لأنَّ فيه تذكيرًا بمقام الإخلاص. وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ علاجٌ للكِبْر؛ لأنَّ فيه تذكيرًا بحاجة العبدِ لربِّهِ وافتقارِه إليه.

تعليمُ اللهِ للمُؤمنينَ هذه الضَّرَاعة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٤﴾ بصيغةِ الجمعِ، تذكيرٌ من اللهِ تعالى بأنَّ هذا الدِّينَ الإسلاميَّ الحنيفَ هو الرابطةُ الوطيدةُ بينَ المسلِمينَ؛ على اختلاف أجناسِهِم ولُغَاتِهِم، وتباعُد أقطارِهِم وبلادِهِم. ويُمكِنُ أن يُفْهَم منه قيمةُ الجماعةِ في الإسلام، والعملِ على تقوِيَتِها وتنميتها؛ لأنَّها من المُعيناتِ على استمرار العبدِ وثباته على هذا الدِّين.

للعبادةِ في شخصيَّةِ الإنسانِ آثارٌ تربويَّةٌ، منها:

أنَّ العبوديَّةَ للهِ وحدَه تعني التَّحرُّرَ المطلق من كلِّ عبوديَّةٍ لغيرِ الله، وعلى هذا لا يكونُ الإنسانُ حُرًّا ما لم يكن عبدًا للهِ وحده، حيثُ يتحرَّرُ من كلِّ عبادةٍ لغيرِه.

العِبادةُ تُنشئُ الإنسانَ المستقيمَ، بقيامِهِ بتعاليمِ الشَّريعَة، والمتوازنَ الَّذي يعملُ لدُنياهُ ويعملُ لآخِرَتِهِ، والَّذي يُلَبِّي حاجاتِه الجسديَّةَ، ويُلبِّي حاجاتِه الرُّوحيَّة.

العبادةُ تربطُ القلبَ البشريَّ بالله، وهذا هو مَفرقُ الطَّرِيقِ بينَ المنهجِ التَّربَوِيِّ الإسْلاميِّ، وبينَ غيرِهِ مِن المناهِجِ التَّربَويَّة البَشريَّة، البَعِيدَةِ عَن شَرعِ الله.

العبادةُ تُرَبِّي الإنسانَ على القُوَّة، وعَلَى مُقاومَة الضَّعف البَشريِّ المتمثِّل بالأهواء البشريَّة الَّتي خلقها اللهُ في الإنسان، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء]، فالعبادةُ تُعطي الإنسانَ قُوَّةَ الضَّبطِ والاعتدالِ في مُواجَهَة ما يَجُول بداخله من الأهواء والشَّهَواتِ.

العِبادةُ تُزَكِّي النَّفْسَ البَشريَّة وتُطَهّرها وتُشَذِّبُها، وما لم يحصُل ذلك فإنّ الهدفَ من العبادة لم يتحقَّق، فإذا زكَتِ النَّفسُ وسَمَت وتطهَّرَتْ فاضتْ بالخيرِ والبذلِ والتَّضحيةِ على مَن حولها، وهذا هو الأثرُ الاجتماعيُّ للعبادة.

من أخطرِ ما ابتُلِيَت به الأُمَّةُ المسْلمَةُ، ذلكَ الفصلُ بين العقيدةِ والعبادة، وكذلك الفصلُ بينَ العبادةِ وآثارِهَا التَّربَويَّةِ والاجتِماعيَّة، حيثُ تحوَّلَتِ العبادةُ عندَ كثيرين إلى مجرَّدِ عادة، دونَ تحقُّقٍ بالمضامينِ التَّربويَّة والاجتماعيَّةِ للعِبَادَات، ولاسيَّما القلبيَّة منها.

* * *

قولُه تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

بعدَ ذِكْرِ الاستعانةِ، بيَّنتْ هذهِ الآيةُ أهمَّ ما يُستَعَانُ باللهِ تعالى عَليهِ، وهُو الهِدَايةُ للصِّرَاطِ المستَقِيم ؛ فإنَّ فيهِ الفَلاحَ الدَّائمَ في الدُّنيا والآخِرَة.

في قولِه: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ في فاتحَةِ الكتابِ دليلٌ على أنَّ كِتَابَ اللهِ تعالى كتابُ هِدَايةٍ؛ فَمَنْ طَلب الهُدَى به هداهُ اللهُ تعالى.

في الآيةِ تنبيهٌ على بُطلانِ البِدَعِ ووجوبِ متابعَةِ النَّبيّ ﷺ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يَقبلُ العملَ إلا إذا كانَ وفقَ الصِّرَاط المستَقِيم الَّذي دَعَا إلَيه ﷺ.

الهِدَايةُ مِمَّا فَرَضَ اللهُ تعالى سُؤالَهُ وَعظَّم مِنَّتَهُ بها؛ وهيَ أجَلُّ ما يُطلب، ونَيلُها أشرفُ ما يُوهَب؛ لذا أرشدَ اللهُ عبادَه- في الآياتِ قبلَ طَلَبها- إلى وَسيلَتَيْنِ لا يَكادُ يُردُّ معهما دعاءٌ؛ التَّوسُّل إليه بأسمائه وصفاته، والتَّوسُّل إليهِ بعبادته، وبالتَّفاوُت فيهما تتفاوتُ استجابةُ اللهِ للسَّائلين(١).

هذهِ الآيةُ تُشِيرُ إلى أنَّ كلَّ نِعْمَةٍ وَصَلْتَ إليها- وفي مقدِّمَة ذلك نعمةُ الهدايةِ للصِّرَاط المستَقِيم- لا يُمْكِنُ أن تَصِلَ إليها إلا بعَوْنِ الله، فكانَ لِزَامًا على كلِّ مُسْلِمٍ ألا يَغْفُلَ عن طلبِ العَوْنِ مِنَ اللهِ ﷻ.

الهِدَايةُ هِدَايَتَانِ: هِدَايَةُ التَّوفِيقِ والإلهامِ، وهِدَايةُ الدَّلالة والإرشاد، وهُنا يَسأل العبدُ مولاه كِلتا الهِدَايَتَيْنِ، حتَّى يكونَ مِمَّن وُفِّقَ إلى الفَوز بالجنَّة.

---

١) يُنظر: مدارج السالكين: ٤٧/١.

في الآيةِ إشارةٌ إلى إثباتِ النُّبُوَّة، فإنَّ سؤالَ اللهِ تعالى الهِدَايةَ يَستَلزِم إرسالَ الرُّسُل؛ لأنَّ الهِدَايَةَ تَتَضَمَّنُ هِدَايةَ الدَّلَالة والإرشاد، ثمَّ التَّوفِيق والإلهام، ولا تكونُ الدِّلالةُ والإرشادُ إلا بإرسال الرُّسُل.

قيامُ العبدِ بِهِدَايَة الدِّلالةِ والإرشادِ من أفضلِ الأعمال، فهيَ وظيفةُ الأنبياء، وهي سببٌ لنيلِ هدايةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ الجزاءَ من جنسِ العَمَلِ، وأمَّا هِدَايةُ التَّوفِيقِ فهيَ للهِ وحدَه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ ٢٧٢﴾[البقرة].

لم يُعْطَ أحدٌ في الدُّنيا والآخِرَة أفضلَ مِنَ الهِدَايَة، كما منَّ اللهُ على رسوله ﷺ بعد الفتح بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ٢﴾ [الفتح]، والمراد: يوفِّقُك ويُرشِدُك، فتضمَّنت الهداية إلى العلمِ والعَمَلِ الصَّالح على وجهِ الاستِقامة والكمال، والثَّباتَ عليها حتَّى لقاءِ الله؛ فالهِدَايَة إلى هذا الصِّرَاط هيَ أعظمُ ما أنعَمَ اللهُ به على أحدٍ؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٨٧﴾ [الأنعام]، فمنِ اهتدَى بالدِّلَالة والإرشادِ إلى معرفةِ الحقِّ، واهتدَى بتوفيقِ اللهِ إلى العملِ والثَّبات، وتمَّت له هدايتُه بأنْ يُهدَى إلى تقصيرِهِ وذنبِهِ ليتوبَ منه، كان مِمَّنْ يَهْدِيهِم ربُّهم إلى منازلهم في الجنَّة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ [يونس].

عدَّى الفعلَ بنفسِهِ في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٥﴾؛ لأنَّ فِعلَ الهِدَايَة متى عُدِّي بـ«إلى» تضمَّنَ الإيصالَ إلى الغَايَةِ المَطلُوبَة، فأتى بحرف الغَاية، ومتى عُدِّيَ باللام تضمَّنَ التَّخصِيص بالشَّيء المطلوب، فأتى باللَّام الدَّالَّة على الاختِصَاص والتَّعْيين، وإذا تعدَّى بنفسِه تضمَّنَ المعنى الجامِعَ لذلك كُلِّهِ، وهو التَّعْرِيفُ والبيانُ والإلهامُ، فالقائلُ إذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٥﴾

هُوَ طالبٌ مِنَ اللهِ أن يُعرِّفَهُ إياه، ويُبيِّنَهُ له، ويُلْهِمَهُ إيَّاهُ، ويُقْدِرَهُ عليهِ، فيجعل في قلبِهِ عِلْمَهُ وإرادَتَهُ والقُدْرَةَ عَلَيهِ، فجرّدَ الفعلَ من الحرف وأتى به مجرَّدًا مُعدًّى بنفسِهِ؛ لِيَتَضمَّنَ هذهِ المراتبَ كُلَّهَا، وَلَو عُدِّيَ بِحَرْفٍ تَعَيَّنَ مَعنَاه وتخصَّصَ بحَسَبِ مَعنى الحَرْف(١).

في قَوْلِ العَبد: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ ﴾ إيمانٌ بالقَدَرِ؛ لأنَّهُ يطلُبُ الهِدَايَةَ مِمَّن يَملِكُها، ويعترفُ بقُدرَتِهِ عليها، وَحَاجَةِ العَبدِ إليها، مع ما للعبد من مشيئة خاضعة لمشيئة الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾[التكوير].

في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ سؤالُ الهِدَايةِ للجَميع، وفيهِ إشارةٌ إلى حِرْصِ المؤمنِ على الدَّعوة، وفي الإتيانِ بضميرِ الجمع إشعارٌ بالتِفَاتِ المُسلِمِ لنَفْسِهِ وإلى إخْوَانِهِ فَيَشْمَلُهم بدُعَائه.

الإنْسَانُ مُفتقِرٌ إلى هِدَايَةِ اللهِ لهُ، فإنَّهُ إنْ ضَلَّ احتاجَ إلَى مَنْ يَهْدِيهِ إلى الطَّريق، وإن وَصَلَ احتاجَ إلى مَن يُعرِّفُهُ بالطَّريقِ، وإنْ سَلَكَ احتاجَ الوُصولَ إلى الهدف، وألا ينقطعَ في الطَّرِيق، وإنْ قَطَعَ الطَّرِيقَ احتاجَ إلى مَن يُبلِّغَهُ غَايَتَه، وأن يُنِيلَهُ مَرَامَهُ ويَهْدِيَهُ لهُ.

سُؤالُ الهِدَايَةِ يَتضمَّنُ أمرَيْنِ، الأوَّلُ: ثَبِّتْنَا على الصِّرَاطِ المستَقِيم، حَتَّى لا نَنْحَرِفَ أو نَزِيغَ عنه؛ لأنَّه قد يكونُ الإنسانُ اليومَ مُهْتَدِيًا، وَغَدًا مِن الضَّالِّين. الثَّاني: قَوِّ هِدَايَتَنَا، فَالهِدَايَةُ دَرجَاتٌ، والمهتدونَ طَبَقَاتٌ.

---

١) يُنظر: بدائع الفوائد: ١٢/٢.

الاهتِدَاءُ للصِّرَاطِ المستَقِيم، هو أن يَفعلَ العبدُ في كلِّ وقتٍ مَا أُمِرَ بِهِ في ذَلِكَ الوَقتِ مِنْ عِلمٍ وعملٍ، ولا يفعلَ ما نُهِيَ عنه، فَلِكُلِّ وقتٍ واجباتُهُ ومَنْهِيَّاتُه، ومُستَحَبَّاتُه ومَكرُوهَاتُه.

فرضُ سؤال الهِدَاية في اليَوم واللَّيلة بِضعَ عشرةَ مرَّةً في الصَّلَوَات(١) يدلُّ على أهمِّيَّة سؤال العبدِ رَبَّهُ الهدَايَةَ، وأنْ يَلتَجِئ لرَبِّهِ ﷻ ويُمَرِّغَ وجهَهُ ساجدًا، لعلَّه أن يَقْبَلَهُ فيمَن قَبِل، ويَهدِيَهُ فيمَن هَدَى.

وَحَّدَ الصِّرَاط لأنَّه واحد؛ فذكرهُ مُفردًا مُعرَّفًا تعريفين، تَعرِيفًا باللام: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥﴾، وتَعْرِيفًا بالإضَافة في الآيَة التَّالية: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ۝٦﴾، وذلك يُفيدُ تعيينَهُ واختصَاصَهُ وأنَّه صِراطٌ واحد. وأمَّا طُرق أهلِ الغَضَب والضَّلالِ، فإنَّه سبحانه يجمعُها؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣] فوحَّدَ لفظ الصِّرَاطِ وسبيلَه؛ وجمعَ السُّبُلَ المخالفةَ لهُ.

جرى ذِكْرُ الصِّرَاطِ المسْؤول مرَّتَينِ بخِلَاف غيره؛ فكأنَّ المؤمنينَ كرَّرُوا طَلَبَ الهِدَايَةِ مَرَّتَيْن؛ إلحاحًا على اللهِ تعالى.

عرَّفَ الصِّرَاطَ باللَّام؛ لأنَّ المرادَ الهدايةُ إلى الصِّراط المُعَيَّنِ الَّذي نصبهُ اللهُ تعالى لأهل نِعمته، وجعلَه طريقًا إلى رِضْوَانه وجنَّتِه، وهُو دينُه الَّذي لا دينَ له سِوَاه، فاللام هُنا للعَهد العِلْمِيِّ الذِّهْنِيّ(٢).

---

١) فرضها سبعَ عشرة مرَّةً على كل مكلَّف لم يقم به عُذر، إلا في يوم الجمعة، فخمس عشرة مرة على من تلزمُهم الجمعة، وأمَّا في السَّفر فأحدَ عشرة مرة أو فوقها إن أقام، وأقل ما تجب قراءتها ست مرات في اليوم والليلة، وذلك على مسافر دأب على الدخول في الركوع مع إمام.

٢) يُنظر: بدائع الفوائد: ١٢/٢.

الصِّرَاطُ في اللُّغة: ما جمعَ خمسةَ أوصاف: أن يكونَ طريقًا مستقيمًا، سهلًا، مَسلُوكًا، واسِعًا، مُوَصِّلًا إلى المقصود. وهكذا صِرَاطُ ربِّك لا ترى فيه اعوِجَاجًا، ولا عَنَتًا ومَشَقَّة، يسلكه الصَّالِحُون، ويتَّسع لكلِّ مَن أراد لزومَه، ومَن صَبَرَ عليه وصَلَ إلى مقصوده مِن رضا اللهِ والجنَّة(١).

حقيقةُ الصِّرَاط المستقيم شيءٌ واحد، وهو طريقُ الله الَّذي نصبه لعباده على ألسُن رسله، وجعله مُوصِّلًا لعبادِه إليه، ولا طريقَ لهم إليهِ سِواه، بل الطُّرُق كلُّها مسدودةٌ إلا هذا، وهو إفرادُه بالعبوديَّة، وإفرادُ رسوله بالطَّاعة، فلا يُشْرِك به أحدًا في عبوديَّته، ولا يُشرِكُ برسوله أحدًا في طَاعَتِه، فيُجَرِّدُ التَّوحيد، ويُجرِّدُ متابعة الرَّسول ﷺ؛ وهذا كلُّه مضمونُ شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسُولُ الله(٢).

الصِّرَاط هو السَّبيلُ، وينقسمُ إلى قسمين: مستقيمٍ، ومعوَجٍّ؛ فما كان مُوافِقًا للحقِّ فهو مُستقيم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام:١٥٣]؛ وما كانَ مُخَالفًا لهُ فهُو مُعوَجٌّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

«المسْتَقِيم» هنا مُستَعار للحقِّ البيِّن الَّذي لا تُخالِطه شُبهة باطل، فهُو كالطَّريق الَّذي لا تتخلَّله بُنَيَّات.

كلُّ عملٍ صالحٍ يُوفَّقُ له المؤمنُ تابعٌ لِهِدَايَتِه الصِّرَاطَ المستَقِيمَ، فينبغي له أن يستحضرَ هذا الفضلَ وهذه المِنَّةَ مِن اللهِ تعالى عليه، فيُكثِرَ مِن حَمدِه وشُكرِه.

---

(١) السَّابق.

(٢) السَّابق.

كما أنَّ في الدُّنيا صِرَاطًا يُطلبُ من العباد السَّيرُ عليه، فإنَّ غايةَ هذا الصِّراط المعنويِّ صراطٌ حِسِّيٌّ يُنصب على مَتن جهنَّم يومَ القيامة، ويسيرُ النَّاسُ عليه، فمن سَلك الصِّراطَ في الدُّنيا وثبت عليه ثبَّته اللهُ تعالى على الصِّراط في الآخرة حتى يصلَ إلى الجنَّة؛ لأنَّ الجزاءَ من جنس العمل.

* * *

قولُه تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ⁦(٦)⁩ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ⁦(٧)⁩﴾

تفصيلٌ بعد الإجمال لقولِهِ تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ⁦(٥)⁩﴾، وفائدتُه: أنَّ النَّفسَ إذا جاء المجمَلُ تترقَّبُ وتتشوَّفُ للتَّفصيلِ والبَيان؛ فإذا جاء التَّفصيلُ وَرَدَ على نفسٍ مُستَعِدَّةٍ لقَبُوله مُتشوِّفَةٍ إليه.

هذا التَّفصيلُ بعدَ الإجمالِ، فيهِ دليلٌ على أنَّ العقلَ لا يَستَقِلُّ بإدراك تفاصيل الصِّرَاط المسْتَقِيم، بل هُو مفتقرٌ في ذلك إلى الشَّرع.

خُتمَتِ الفاتحةُ بتقسيم النَّاس إلى ثلاثةِ أصناف: مُنعَمٌ عليهم، ومغضوبٌ عليهم، وضالُّون. وهذا التَّقسيمُ على أساس العِلْم والعَمَل؛ فالمنعَمُ عليهم: هُم مَن أُنعِمَ عليهم بنِعمَة الإيمانِ والهِدَايَة، والتَّوفِيق والاستِقَامة على الدِّينِ والعملِ به؛ فهم عَلِمُوا، وعَمِلُوا بما عَلِمُوا، ومِن ثَمَّ دعَوُا النَّاس إلى مَا تَعَلَّمُوا، فهؤلاء مُنعَمٌ عليهم بالعِلم، ومُنعَمٌ عليهم بالعمل، ومُنعَمٌ عليهم بالدَّعوة إلى دين الله. أمَّا المغضوبُ عليهم، فهم مَن عَلِمُوا الحقَّ ولم يعملوا به وجحدوه، فَغَضِبَ اللهُ عليهم، وهم اليهودُ، ومَن سارَ على منهاجهم وطريقتهم. وأمَّا الضَّالُّون فهم الَّذين لا عِلمَ عندهم، يَعمَلُون بلا عِلم، يَعبُدُون اللهَ على جَهلٍ، وهم النَّصارى، ومَن سارَ على شَاكِلَتِهم.

في الآيَتَينِ إثباتُ النُّبُوَّة؛ لأنَّ تقسيم النَّاس لهذه الأصناف الثَّلاثة، إنَّما يكون بحسب اتِّباعهِم للرُّسُل أو مخالفتهم.

ممَّا يُعِينُ على السَّير على الصِّراط المستقيم: العِلمُ بالهُدى واتِّباعه، والعِلمُ بالباطلِ واجتنابُه، ولهذا أمر تعالى عبادَه بسؤاله هدايةَ الصِّراط المستقيم، واجتنابَ صراطِ أهلِ الغضب والضَّلال، وقد بيَّن رسوله ﷺ ذلك.

عَرَّفَ تعالى الصِّرَاط بأنَّه مستقيمٌ، وأضافه إلى أهله المُنعَم عليهم، وذكرَ حالَ المنحرفين عنه؛ ليَحرِصَ المؤمنُ على سلوكه.

ذِكْرُ المُنعَم عليهم يُظهرُ صفاتِ الكرم والحمد والرَّحمة، وذِكْرُ المغضوبِ عليهم والضَّالِّين يُظهر صفاتِ القدرة والمجد، وكلُّها تُظهرُ صفاتِ المُلك والعَظَمَة.

يَظهرُ في هذه الآيةِ أهمِّيَّةُ الدُّعاء، وخُصُوصًا في الأمور المُهِمَّة، ومنها الثَّباتُ على الصِّرَاط المستقيم، والاستعاذةُ من طريق أهل الغيِّ والضَّلال، وهذا أجلُّ مطلوبٍ، وأعظمُ مسؤولٍ، ولو عَرَفَ الدَّاعي قدرَ هذا السُّؤال لَظَلَّ يدعو به في كلِّ أوقاتِهِ.

في قَولِه: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ إيمانٌ بالقَدَرِ؛ لأنَّ الإنسانَ يُؤمِنُ بأنَّ النِّعمَةَ كلَّها منَ اللهِ تعالى، وهو المالكُ لها.

وفيه إسنادُ النِّعْمَةِ إلى اللهِ تعالى وحده في هِدَاية الَّذين أُنعِم عليهم؛ لأنَّها فضلٌ محضٌ من الله.

في تخصِيصِه لأهل الصِّراطِ المستقيم بالنِّعْمَةِ، مَا دَلَّ على أنَّ النِّعمةَ المطلقة هي الموجِبَةُ للفَلَاح الدَّائم؛ وأمَّا مُطلقُ النِّعْمَة فعلى المؤمنِ والكافر، فكُلُّ الخلقِ في نِعمةٍ.

لا يكونُ العبدُ مُنْعَمًا عليه بالنِّعْمَة المطلقة إلَّا بأمرَين: عِلمٌ بالحقِّ، وعملٌ به، عِلمٌ يَهدي، وعملٌ يُرَقِّي، فإذا وُجد العلمُ النَّافع والعمل الصَّالح كان العبدُ من السَّائِرين على الصِّرَاط المستقيم، صِرَاط الَّذين أنعمَ اللهُ عليهِم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ولم يقُل: المُنعَم عليهم، كما قال المغضوب عليهم؛ وذلك لفوائدَ عديدة:

إحداها: أنَّ هذا جاء على الطَّريقة المعهودةِ في القرآنِ الكريم، وهي أنَّ أفعالَ الإحسانِ والرَّحمةِ والجُود تُضاف إلى الله ﷻ، ولا يُبنَى الفعلُ معَها للمفعول، فإذا جِيءَ بأفعالِ العدلِ والجزاءِ والعقوبةِ؛ حُذِف وبُني الفعلُ معها للمفعول، أدبًا في الخطاب(١).

الفائدة الثَّانية: أنَّ الإنعامَ بالهِدَايَة يستوجبُ شُكرَ المنعِم بها، وأصلُ الشُّكْر ذِكْرُ المُنعِم والعملُ بطاعته، وكان من شُكْره إبرازُ الضَّمير المتضمِّن لذكره تعالى، الَّذي هو أساسُ الشُّكر.

الفائدة الثَّالثة: أنَّ النِّعمةَ بالهدايةِ إلى الصِّرَاط للهِ وحدَه، وهو المُنعِمُ بالهِدَايَةِ دونَ أن يُشرِكَ أحدًا في نِعمته؛ فاقتضَى اختصَاصُه بها أن يُضافَ إليه بوصف الإفراد، فيُقال: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: أنتَ وحدَك المنعِمُ المحسِنُ المتَفضِّل بهذه النِّعمة، وأمَّا الغَضَبُ فإنَّ اللهَ سبحانَه غَضِبَ عَلى مَن لم يَكُن من أهل الهِدَايَة إلى هذا الصِّراط، وأمَرَ عِبَادَه المؤمنينَ بمُعَاداتهم، وذلك يستلزمُ غضبَهُم عليهم، موافقةً لغضبِ ربِّهِم عليهم.

---

١) لعلَّ مراد ابن القيم رحمه الله أنَّ هذا هو الغالب، وإلا فقد ورد مثل قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [الحج]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام].

الفائدة الرَّابِعة: أنَّ المغضوبَ عليهِم في مَقام الإعراضِ عنهم وتركِ الالتفاتِ، والإشارة إلى نفس الصِّفَة الَّتي لهم والاقتصار عليها، وأمَّا أهلُ النِّعمة فهم في مقام الإشارة إليهم، وتعيينهم والإشادة بذكرهم(١).

الَّذين أنعمَ اللهُ عليهِم همُ الأنبياءُ والرُّسُل- صلواتُ الله وسلامُه عليهم- بدءًا بآدمَ وانتهاءً بمحمَّدٍ، وأتباعِهِم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء]، وكفى بها نِعمةً أن يكونَ المرءُ في صُحبة هذا الرَّكب المبارك، فمَنْ مَنَّ اللهُ تعالى عليهِ بسُلوك الصِّراطِ المستقِيم فلا يستوحشْ ولو كان وحدَه؛ لأنَّه في طريقِ المنعَمِ عليهم، وقد نبَّهَ اللهُ سبحانه على الرَّفيقِ في هذه الطَّريق، وأنَّهم الَّذين أنعم اللهُ عليهم؛ ليَعْلمَ الطَّالبُ للهداية وسلوك الصِّراط أنَّ رفيقه فيه أولئك النَّاسُ؛ فلا يكترِثْ بمخالفة النَّاكبين عنه. «ففي ذِكْرِ هذا الرَّفيق ما يُزيلُ وحشة التَّفرُّد، ويَحُثُّ على السَّير والتَّشمير لِلَّحاق بهم؛ وهذه **إحدى** الفوائدِ في دعاء القُنوت: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ**»(٢)؛ أي: أدخِلْني في هذه الزُّمْرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم.

والفائدة **الثَّانية**: أنَّه توسُّلٌ إلى الله بنِعَمِهِ وإحسَانِهِ إلى مَن أنعَمَ عليه بالهداية؛ أي: قد أنعمتَ بالهداية على من هديتَ، وكان ذلك نعمةً منك؛ فاجعلْ لي نصيبًا من هذه النِّعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاءِ المنعَم عليهم، فهو توَسُّلٌ إلى اللهِ بإحسانه.

والفائدة **الثَّالثة**: كما يقول السَّائلُ للكريم: تصدَّقْ عليَّ في جملةِ مَن تصدَّقتَ عليهم، وَعلِّمْني في جملة مَن عَلَّمْتَه، وأحْسِنْ إليَّ في جملة من شملته بإحسانك،

---

١) يُنظر: بدائع الفوائد: ٢/١٨.

٢) أخرجه أبو داود ٢/٦٣ (١٤٢٥)، والترمذي ٢/٣٢٨ (٤٦٤)، والنسائي ٣/٢٤٨ (١٧٤٥)، وابن ماجه ١/٣٧٢ (١١٧٨).

وفيها استعطافٌ لقَبول التَّوسُّل بالدُّعاء في الهداية؛ أي: طلبنا منك الهدايةَ إذ سبق إنعامك؛ فمن إنعامِكَ إجابةُ سُؤالنا. ومِن عادة المساكينِ أن يتوسَّلوا بقولهم: «أعطِنا كما أعطيتَ فلانًا وفلانًا»»[1].

إضافةُ الصِّراط إلى الموصول المبهم في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وعدم ذكرهم بخصوصِهم بقول: صِراط النَّبيِّين والصِّدّيقين؛ فيه ثلاثُ فوائد: **إحداها**: إحضارُ العلم وإشعارُ الذِّهن عند سَماع هذا، فإنَّ استحقاقَ كونِهم من المنعَم عليهم هو بهدايتهم إلى هذا الصِّراط، فبِهِ صارُوا من أهل النِّعمة.

الفائدة **الثَّانية**: إشارةٌ إلى نفي التَّقليد عن القلب، واستشعارُ العلم بأنَّ من هُدِيَ إلى هذا الصِّراط فقد أُنعِم عليه، فالسَّائلُ مُستَشْعِرٌ سُؤالَه الهدايةَ وطلبَ الإنعام مِن اللهِ عليه؛ والفَرقُ بينَ هَذا الوَجْهِ والَّذي قبله: أنَّ الأوَّل يتضمَّنُ الإخبارَ بأنَّ أهل النِّعمة هم أهلُ الهِدَايةِ إليه؛ والثَّاني يتضمَّن الطَّلَبَ والإرادةَ وأن تكونَ منه.

الفائدة **الثَّالثة**: أنَّ الآية عامَّةٌ في جميع طَبقاتِ المنعَم عليهم، ولو أتى باسمٍ خاصٍّ لكان لم يكُن فيهِ سؤالُ الهِدَايةِ إلى صِراطِ جميعِ المنعَم عليهِم، فكانَ في الإتيانِ بالاسمِ العامِّ من الفائدةِ؛ أنَّ المسؤولَ الهُدَى إلى جميع تفاصيلِ الطَّريقِ الَّتي سلكها كلُّ مَن أنعَمَ عليهم، من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين»[2].

أسبابُ الخروج عن الصِّراطِ المستقيم، والوقوعِ في شَرَكِ الشُّبُهات والشَّهوات: إمَّا الجهل؛ أو العِنادُ والهَوَى؛ والَّذينَ سببُ خروجِهم الهوى والعنادُ هم المغضُوبُ عليهِم؛

---

[1] مدارج السالكين: ١/٤٦.

[2] بدائع الفوائد: ٢/٢٥٥، ٢٥٦.

وعلى رأسِهِمُ اليهودُ. والآخَرونَ الَّذين سببُ خروجهم الجهل، كلُّ من لا يعلمُ الحقَّ؛ وعلى رأسهم النَّصارى؛ لذلك من أهمِّ الأمور الَّتي يحتاج العبدُ المؤمنُ أن يهديَهُ الله ويُنقذَه منها هي الجهلُ والهوى، فقد تُوجد عنده الرَّغبةُ في عمل الخير لكنَّه يجهل الطَّريقة الشَّرعيَّة لتحصيلِه، فيسْلُكُ طُرُقًا مبتدَعَةً، ويُجهِدُ نفسَه فيها بلا طائلٍ، وهو يحسَبُ أنَّه يُحسِن صُنْعًا؛ بسبب قلَّة العلم، وقد يكونُ الإنسانُ عالمًا لكن ليس لديه العزيمةُ التي تجعلُه ينبعثُ للعملِ بهذا العلم، ويَغلِبُه الهَوَى فيترُك الواجبَ، أو يرتكب المحرَّم عامدًا مع علمه بالحُكم؛ لضَعفِ إيمانه، ولغَلَبَةِ الشَّهوةِ، وتعجُّل المتع الدُّنيويَّة. فكلُّ الفَلاح أن يُعافِيَكَ اللهُ من العِناد والجهل، فتكونَ من أهل الصِّراط المستقيم.

قولُه: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ «ليس بتخصيصٍ يقتضي نفيَ كلِّ صفةٍ عنْ أصحابِ الصِّفة الأخرى؛ فإنَّ كلَّ مغضوبٍ عليه ضَالٌّ، وكلُّ ضَالٍّ مغضوبٌ عليه، لكن ذَكَرَ كلَّ طائفةٍ بأشهرِ وصفَيها وأحقِّها به وألصَقِه بها، وأنَّ ذلك هو الوصفُ الغالبُ عليها؛ وهذا مطابقٌ لوصفِ اللهِ اليهودَ بالغضبِ في القرآن، والنَّصارى بالضَّلال؛ فهو تفسيرٌ للآية بالصِّفَة الَّتي وصفهم بها في ذلك الموضع»(١).

جاءَ التَّعبيرُ عن المغضوبِ عليهِم باسمِ المفعولِ الدَّالِّ على أنَّ الغضبَ عليهِم حاصلٌ منَ اللهِ تعالى، ومِن أوليائه. وفي حَذْفِ فاعلِ الغضبِ من الإشعار بإهانة المغضوبِ عليه، وتحقيرِه وتصغيرِ شأنِه، ما ليسَ في ذِكر فاعل النِّعمة، من إكرامِ المنعَم عليه والإشادةِ بذكرِه.

---

١) يُنظر بدائع الفوائد: ٢/٢٩.

قدَّمَ اللهُ تعالى الغضبَ على الضَّلال، مع أنَّ الغضبَ نتيجةٌ للضَّلال؛ لمجاوَرَته للإنعام؛ لأنَّ الإنعامَ يُقابَل بالانتقامِ فناسبَ تقديمَهُ. وقدَّم المغضوبَ عليهِم على الضَّالِّين؛ لتقدُّم زمنهم على زمن الضَّالِّين، ولأنَّ أمرهم أخطرُ وذنبهم أكبر؛ فإنَّ الإنسانَ إذا كان ضلالُهُ بسبب الجهل، فإنَّه يرتفعُ بالعلم، وأمَّا إذا كان هذا الضَّلال بسبب الهوى، فإنَّه لا يكادُ يَنزِع عن ضلالِه، ولهذا جاء الوعيدُ الشَّديد في شأن مَن لا يعملُ بعِلْمِه.

جاءت الآيةُ في مَعرِض تعليمِ العِبادِ الدُّعاءَ، والدُّعاءُ حقُّه أن يستشعرَ الدَّاعي عندَه ما يجبُ عليه اعتقادُه مِمَّا لا يَتِمُّ الإيمانُ إلا به، فإذا وجبَ إحضارُ معتقداتِ الإيمانِ عندَ الدُّعاء؛ وجبَ أن يكونَ الطلبُ ممزوجًا بالثَّناء؛ فمِنْ ثمَّ جاء لفظُ الطَّلَب للهدايةِ والرَّغبة فيها مشوبًا بالخبر، تصريحًا من الدَّاعي بمعتقده، وتوسُّلًا منه بذلك الاعتقاد الصَّحيح إلى ربِّه، فكأنَّه مُتوسِّلٌ إليهِ بإيمانهِ واعتقادِهِ أنَّ صراطَ الحقِّ هو الصِّراطُ المستقيم، وأنَّه صراطُ الَّذين اختصَّهم بنعمته وحباهُم بكرامته؛ ففي ضمن هذا الدُّعاءِ المهمِّ الإخبارُ بفائدَتينِ جليلتينِ: إحداهما: فائدةُ الخبر. والفائدة الثَّانية: فائدةُ لازمِ الخبر. فأمَّا فائدةُ الخبرِ فهي الإخبارُ عنه بالاستقامة، وأنَّه الصِّراطُ المستقيمُ الَّذي نَصَبَهُ لأهلِ نِعمَتِه وَكَرَامَته. وأمَّا فائدةُ لازمِ الخبرِ، فإقرار الدَّاعي بذلك وتصديقُهُ وتوسُّلُه بهذا الإقرارِ إلى رَبِّه. فهذِه أربعُ فوائد: الدُّعاءُ بالهدايةِ إليه، والخبرُ عنهُ بذلك، والإقرارُ والتَّصديقُ بشأنه، والتَّوسُّل إلى المدعوِّ إليه بهذا التَّصديقِ؛ وفيه فائدةٌ خامسة: وهي أنَّ الدَّاعيَ إنَّما أُمِرَ بذلك لحاجتِه إليه، وأنَّ سعادتَهُ وفلاحَهُ لا تتمُّ إلا به، فهُوَ مأمورٌ بتدبُّر ما يُطلبُ وتصوُّر معناه، فذكرَ له من أوصَافِهِ مَا إذا تُصُوِّرَ في خَلَدِه وقامَ بقَلْبِه كانَ

أشَدَّ طَلَبًا له، وأعظمَ رغبةً فيه، وأحرَصَ على دوامِ الطَّلَبِ والسُّؤال له، فتأمَّلْ هذهِ النُّكَتَ البَديعَة⁽¹⁾.

في الآيةِ تحذيرُ علماءِ المسلمينَ وعُبَّادِهِم من التَّشَبُّهِ باليهود والنَّصارى في اتِّباع الهوى والجهل، حتى لا يُلاقُوا جزاءَهم، قال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة: «مَنْ فَسَدَ مِن عُلَمائنا كانَ فيهِ شَبَهٌ من اليهود، ومن فَسَدَ من عُبَّادِنا كانَ فيهِ شَبَهٌ من النَّصارى»⁽²⁾.

وفيها دلالةٌ على أنَّه سيكونُ في أمَّة الإجابةِ افتراقٌ وانحرافٌ عن الصِّراط المستقيم؛ حيثُ وقعَ ما أخبرَ بهِ النَّبيُّ ﷺ بأنَّ أمَّته ستَفترق، وسيتَّبِعُونَ سَنَنَ مَن كانَ قَبْلَهُم منَ اليَهُوْد والنَّصَارَى؛ وخَصَّ النَّبيُّ ﷺ بالذِّكر اليهودَ والنَّصارى؛ بيانًا لعِظَمِ تأثيرِ هاتينِ الأمَّتَينِ في العالَمِ من جهةٍ، ولكثرةِ مَن تَشَبَّهَ بِهِمَا مِن المسْلِمِينَ من جهةٍ أخرى.

في الآيةِ ردٌّ على من صحَّحَ دينَ اليهودِ والنَّصارى بعد بعثة النَّبيّ ﷺ، فهم ليسوا على صراطٍ مستقيم.

وفيها دليلٌ على أنَّ من ماتَ على اليَهوديَّة أو على النَّصرانيَّة؛ فهو من أهل النَّار؛ لأنَّهم ليسوا من المهتدين المنعَم عليهم، بل مغضوبٌ عليهم وضالُّون. فيجبُ بُغْضُ اليهودِ والنَّصارى والمشركينَ، والبراءةُ منهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى غَضِبَ عَليهِم ومَقَتَهُمْ.

---

[1] بدائع الفوائد: ٢/٢٥٠.

[2] تفسير ابن كثير: ٤/١٣٨.

في الآيةِ ردٌّ على مَن قالَ بحُرِّيَّة الأدْيَانِ، أو دَعَا إلى تَقَارُبِهَا، وعلى مَن قَالَ بوُجُوبِ احترامِ الأديَانِ؛ يُريدُ عدمَ نقضِها، والإعلانِ ببُطلانها، فليسَ هناكَ دينٌ مُحترمٌ بهذا الاعتبار إلاّ دينُ الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، فكلُّ دينٍ سِوَى الَّذي جاء به مُحَمَّد ﷺ فهو دينٌ باطلٌ في هَذا العَصرِ، لا يَهدِي معتنقَه إلى الصِّراط المستقيم، كالأديان المحرَّفة والوثنيَّة، والأديان المنسوخة الكتابيَّة، وفرقٌ بينَ السَّبِّ والشَّتْمِ، المذكورِ في نحو قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام]، وبَيْنَ بَيَانِ البُطْلَانِ، وذِكْرِ الحَقَائق، فمن جعلَ الاحترامَ المطلوبَ هُو تَرْكُ السَّبِّ لما يَعبُدُون فقد أصابَ، بخلافِ من جَعَلَهُ تركَ بيانِ البُطْلانِ، والتَّصريحَ أو التَّعريضَ بالعَيبِ الَّذي يَلحقُ مُعتنقَ الدِّيانةِ البَاطِلَة، والعيبُ في العادةِ لا يلحقُ الَّذين يُدْعَون من دونِ اللهِ كالأصنام، ناهيكَ عن الأنبياءِ والملائكةِ عليهم السَّلام، وإنَّما يَلحقُ مُؤلِّهيهِم ودِيَانَتَهُم، لا مَعْبُودَاتِهِم ومُعَظِّمِيهِم.

* * *

قولُ المُصَلِّي: «آمين»

يُشْرَع للمُصَلِّي في الفريضةِ والنَّافلة أن يقولَ: «آمين» بعد قول: (ولا الضَّالِّين)؛ منفردًا كان أو إمامًا أو مأمومًا، رجلًا كان أو امرأةً؛ ويُسَنُّ للرِّجال الجهرُ بِها، بَيْنَما تُسِرُّهَا النِّسَاءُ.

فِيها لُغَتَانِ: المدُّ على وزن «فَاعِيلْ» كـ«يَاسِين»، والقَصر على وزن «يمين».

مَعنى «آمِينَ» عندَ أكثرِ أهلِ العِلمِ: اللَّهُمَّ استجبْ لنا، وعن ابنِ عبَّاس: رَبِّ افْعَلْ، وقَالَ التِّرمِذِيُّ: «لَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا»(١).. وَهِيَ مُتَقَارِبةٌ، وقِيل: هو اسمٌ من أسماءِ اللهِ، وقيل: هُو قوَّةٌ للدُّعاء، واستنزالٌ لِلْبَرَكَة.

مِنْ فَضَائلِها قَوْلُ النَّبيِّ ﷺ: «**إِذَا قَالَ الْإِمَامُ:** ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **فَقُولُوا: آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٢)، وقوله: «**وَإِذْ قَالَ**- أي: الإمام-: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، **فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمُ اللهُ**»(٣).

التَّأمِينُ مِمَّا تحسُدُنا عليهِ يهودُ، قالَ ﷺ: «**مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ**»(٤).

يُشْرَعُ للمأمُوم أن يُؤمِّنَ عَلَى دُعَاء الإمَامِ في قُنُوتِ الوِتْرِ.

التَّأمِينُ عَلَى الدُّعَاء المشرُوعِ خارجَ الصَّلاةِ مَشرُوعٌ، وَعَلَى الدُّعاء الممنُوعِ ممنوع.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ١/١٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: ٦/١٧ رقم ٤٤٧٥، وأخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣٠٧ رقم ٤١٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ١/٣٠٣ رقم ٤٠٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه: ١/ ٢٧٨ رقم ٨٥٦، وصححه الألباني.

الخَاتِمَةُ

ذِكْرُ الفَوَائِدِ والدِّلالاتِ المُسْتَنْبَطَة مِن الآياتِ الكَرِيمةِ، لا يَعني أنَّنا تَدبَّرنَاهَا، وإنّما هُوَ شُرُوعٌ في الطَّرِيقِ، أمَّا تَدبُّرُهَا حقَّ التَّدبُّرِ، فبِأَنْ نَقْتَفِيَهَا، ونَعمل بها، ونجعلَها نُصْبَ أعيُنِنَا، مُقدَّمةً عِنْدَنَا، وَنَحنُ في دُبُرِهَا نَتَّبِعُهَا، ونَهْتَدِي بها، وَهذه تَزْكِيَةٌ لا ندَّعِيهَا لأنفُسِنَا.

وبعدَ أنْ فَرَغْنَا مِن ذِكرِ الفَوَائدِ المستَنْبَطَةِ مِن أعظمِ سُورَةٍ في القُرآنِ، وَسَرَدْنا ما فيها من الهِدَايَاتِ الَّتي تدُلُّ المسلمَ على صلاحِ دِينِهِ ودُنياهُ وآخِرَته؛ فحريٌّ بِنَا أن نجتهدَ في تَدبُّرِهَا والعَمَلِ بِهَا، لَعَلَّنَا ندخُلُ ضِمْنَ الَّذِينَ أنعمَ اللهُ عَلَيهِم، فنفوزَ بخَيْرَي الدُّنيَا وَالآخِرَة، ونَكُونَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قالَ العُلَمَاءُ: أي يَتَدَبَّرُونَه ويَعْمَلون به، فعِندَها يَستَحِقُّونَ هذا الوصفَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

وخُلاصَةُ القَول: إنَّ هذهِ السُّورَةَ مُبَيِّنَةٌ لحقِّ الخَالِقِ والمخلوق، ومُجْمَلُها ما يأتي:

تَدعُو سورةُ الفاتحةِ العبدَ إلى تحقيقِ كمالِ العُبوديَّةِ للهِ تَعالى؛ حيثُ يَتقَدَّمُ بينَ يدَي رَبّهِ بالحَمْدِ والثَّنَاءِ والتَّمْجِيدِ، ثُمَّ يَتوجّه إليه بالإقرارِ لهُ بالعُبُوديَّة وَحده، سائلًا إيَّاهُ المَعُونَةَ عليها؛ فإنَّه لا قُدْرَةَ لهُ عَلَى القِيَامِ بِهَا وإتمامِهَا إلا بقُدرَتِهِ، وَلمَّا كَانَ لا بُدَّ فِي العِبَادة مِن إخلاصٍ ومِن استِعَانةٍ يَتقوَّى بِها عَلَيْهَا، ثُمَّ لا تَكُونُ العِبَادَةُ إلا بِمَا شَرَعَه، تَوَجَّهَ إليهِ بسُؤالِه هداية الصِّرَاطِ المستقيمِ؛

فإنَّه سبيلُ الثَّباتِ عَلَى صِرَاطِ الآخِرَةِ، والفَلَاح الدَّائم -وهُوَ صِرَاطُ الَّذين أنعَمَ اللهُ عَليهِمْ من الَّنبيِّيَن والصِّدِّيقين والشُّهَداء والصَّالحين- وأنْ يُجنِّبَه طريقَ المغضوبِ عليهِم والضَّالِّين، الَّذِين خَرَجُوا عن الصِّرَاطِ المستقِيمِ بِاتِّبَاعِ الجَهْلِ أوِ الهَوَى، فكانَ جزاؤُهم غضبَ اللهِ وعقابَه.

ولما كانت سُورَةُ الفَاتِحَة هي أمُّ الكتابِ، فقد اشتملتْ عَلَى مَقاصِدِهِ ومَعَانِيهِ الجَلِيلَة، وقد نَبَّهْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِن ذَلك، وَنَثَرْنَاه في هذا الكِتَاب.

واللهَ أسألُ أن يجعلَنَا مِن المُتَدَبِّرِينَ لكتابه ولأمِّ الكِتَاب، المهْتَدِينَ بِهِ إلى مَا فيهِ الفَلَاحُ والسَّعَادةُ في الدُّنْيَا والآخِرَة، والحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
بين يَدَي السُّورة	٩
وَقَفَاتٌ إجماليَّة مع السُّورة	١٩
وَقَفَاتٌ معَ آياتِها	٢٩
﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾	٢٩
﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١﴾	٣٣
﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾	٣٧
﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٣﴾	٤١
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٤﴾	٤٧
﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٥﴾	٥٣
﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾	٥٩
قولُ المصلي «آمين»	٦٩
الخاتمة	٦٩
فهرس الموضوعات	٧١

تم بحمد اللّٰه